حكايات القرية

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماً

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com
info@almaktabalmasry.com

القـــاهرة: ٢ شـــارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شـــارع نوبـــار المنشـــية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

د./ أحمد خالد عبده

حكايات القرية

(روايـــة)

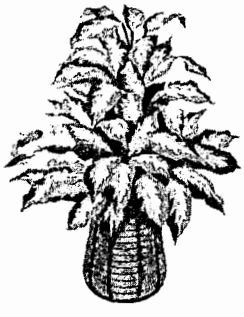

المكتب المصري الحديث
www.almaktabalmasry.com

السر

أصبح الحاج حسن بلا شك من أغنياء قريتنا المعدودين في الخمسينيات من هذا القرن، فقد زادت أملاكه عن ثلاثين فدانًا من الأراضي الجديدة، ورغم أن الرجل ابتنى لنفسه دارًا بالطوب الأحمر، ورغم أنه علَّم أولاده وزوَّج بناته جميعًا، إلا أن طرائفه وحكاياته كرجل بخيل، أو ـ بلفظ أكثر تأدبًا ـ "حريص" مازالت تتلذذ الألسنة بلوكها من حين لآخر، كما أن مصدر هذا المال الذي اشترى به الأرض من الخواجة قد ظل طويلاً مصدرًا للحدس والتخمين بل والاتهام.

كان الرجل ـ أو الحاج حسن ـ كما يحب الناس في قريتنا أن ينادونه لا يزيد عن كاتب في تفتيش الخواجة "إلياس مهني"، ضعيف البنية رث المظهر، لكنه عُرف بنشاطه وهمته وفهمه وإجادته لعمله، وكان أخوه من رجال الخواجة المقربين حيث عمل مديرًا لمخازنه، وأمينًا على الغلال، سواءً التي يشتريها للتجارة أو تلك التي تنتجها أرضه، وعندما احترقت مخازن الخواجة في المركز، فإنه أبى أن يتهم الرجل وأصر على أقواله في محضر الشرطة، وقيل يومها أن الحريق مدبر ليغطى على سرقات كادت أن تنكشف، وأن الخواجة ـ على غير عادته ـ كان شهمًا مع مرؤوسه، وبرغم أن شركة التأمين ماطلت في دفع المبلغ الباهظ الذي أمَّن به الخواجة على مخازنه لحين انتهاء التحقيق، إلا أن المسألة بدت وكأنها قضاءٌ وقدر، واضطرت الشركة إلى الدفع، وبعدها بعام تقريبًا استقال شقيق الحاج حسن من خدمة الخواجة، حيث وجد وظيفة سكرتير في مدرسة أهلية، وانتقل بأسرته إلى عاصمة المحافظة، ولكنّ الشكوك عادت لتطل برأسها

عندما عرض الخواجة أرضه للبيع فإذا بالحاج يشتري لنفسه خمسة وعشرين فدانًا، ولدهشة الجميع فقد أعطاه الخواجة شروطًا خاصة أكرمه فيها وميزه عن سائر المشترين، وظهر في البلد من يقول أن هذه هي النقود التي سرقها أخوه من قبل، اشترى شريك السارق بها الأرض من المسروق، ورغم أن الخواجة لم يكن محبوبًا ولا كانت نقوده فوق موطن الشبهات، إلا أن الحسد اختلط بالحيرة مما جعل الفلاحين يُسرفون في ترويج هذه الشكوك، ونمّاها في نفوسهم، ونجا الحاج سالم والشيخ حسان من مثل هذه الأقاويل رغم أن كلا منهما اشترى من أرض الخواجة أكثر ممّا اشتراه هو، ولعله فُسّر هذا بأن الناس استكثروا على رجل غريب رقيق الحال أن يصبح من ذوي الأملاك في قريتهم.

هو رجل هادئ متجهم، تختلط الطيبة عنده بشيء من مكر الفلاح ومهارته وجَلَده، وتظهر الخبرة والحرص مع الحكمة والحلم في كل معاملاته، فهو يستطيع اقتناص الفرصة السانحة لإيجار أرضه وبيع محصوله وشراء قطعة أرض هنا أو هناك بسعر جيد وشروط مريحة، ونادرًا ما يتحول هدوؤه إلي غضب عارم يُعبر عنه بسخرية مريرة أو بوعيد صارم، وعندما يكون الطرف الآخر هو الأقوى فإنه لا يتوانى عن التذكير بقدرة الله وقوته، وأنه سبحانه وتعالى لن يترك لمن يظلم الناس أن يستمتع بثمار عمله أو ينعم بها.

حكوا عنه أنه بنى بيته بدون أساس عميق وكانت فكرته أن المنزل يكون قادرًا على الحركة إذا ما حدث زلزال، وأنه خير له أن يقوم ليجد منزله في مكان آخر من أن يتهدم على رأسه!!.. كما قيل أنه كان لا يرضى أن تذبح زوجته أكثر من دجاجة واحدة حتى بعد أن أصبح عدد أفراد أسرته أكثر من أربعة ولم يعد ينال كل منهم إلا أقل من الربع، وأنه ظل يسهب ويفيض في فوائد الصوم والتقشف في الطعام والفرش والملبس، وأن عدم الاهتمام بالمظاهر يُعد تقربًا لله

سبحانه وتعالى، وكلها مما توفر له قروشه التي يستخدمها في تنمية ممتلكاته من أرض ومخازن وجرارات زراعية وغيرها، بل لقد تسبب حرصه هذا في تأخر زواجه حتى قارب الأربعين عمرًا.

ومن نوادره أنه هرب من أهله ومن حلاق القرية في الليلة السابقة على زواجه، وذلك ليوفر أجر الحلاق، حيث فوجئ به بعض أهل البلد مستخفيًا بجوار المراحيض العمومية في المركز وقد جلس على منديل عريض، بينما أخذ أحد الحلاقين المتواضعين يحلق شعره، وتعمد الفلاحون الخبثاء أن يمروا عليه ملقين التحية، وعرض عليه أحدهم أن يقرضه قرشًا، وهو ثمن الحلقة في هذا المكان وقتها، ومنها أنه مرض في أثناء الحج وكان ذلك عام اثنين وأربعين وتسعمائة وألف، فتعاون من كان في الحج من معارفه وأصدقائه في حمله والعناية به، وحدث أن تركه أحدهم مستندًا إلى عمود أمام الحرم حتى يتم عمرة التنعيم، ويبدو أن الحجاج ظنوا من هيئته وطريقة جلوسه أنه من الشحاذين، فأخذوا يلقون في حجره وفي يده عملات معدنية متنوعة، وعندما خرج صاحبه ووجده على هذا الحال ووجد الناس يظنون فيه هذا الظن نهرهم وكاد يلقى بقطعهم المعدنية، لولا أن أجهش الحاج حسن بالبكاء فجأة فأخذ يطيب خاطره ويسرِّي عنه، ويقول رفيقه في الرحلة ساخرًا أنه فهم بعدها أن الرجل إنما بكى لأنه قطع عليه هذا الباب للرزق، وكاد أن يضيع ما جمعه من نقود عن طريقه.

يسمع الحاج هذه القصص وغيرها فلا يعلق إلا بابتسامة، أو يدعو الله ألا يجعله رهنًا بعقول الناس وأفكارهم، ولم يظهر عليه أو باح لأحد قط بما كان يشعر عندما يسمع هذه النوادر تروى عنه، وأن لعن أحيانًا تفاهة عقول الناس الذين لا يجدون ما يشغلهم غير الغيبة والنميمة.

كان لديه في الواقع دائمًا ما يشغله ويحتاج لتركيزه، فهو من الفلاحين المهرة الذين جربوا محاصيل لم يسبق إليها أحد من أهل

القرية، مثل زراعة الكتان والجزر والبطاطس وغيرهم مما لم يكن لهذه المنطقة به عهد، وكان يتاجر في الحبوب وأحيانًا في المواشي، ومن مزاياه أنه لم يُقرض أحدًا بالربا قط، ولا توانى عن مساعدة أولاد أخيه الذي توفاه الله بعد انتقاله إلى المدينة بسنوات قليلة، وحسبه الناس يسدد لهم دينًا لأخيه في عنقه، وهو الذي أعطاه ما سرقه من الخواجة كي يشترى به الأرض حسب ظنهم، وظل أصدقاؤه في القرية يعدونه مرجعًا لهم في زراعة المحاصيل التي استحدثها في قريتهم، وكان - وهو أحدثهم عهدًا بالزراعة - يسعد بهذا ولا يحبس علمه عنهم.

في إحدى المرات القليلة أظهر ضيقًا بما يظنه الناس فيه، وما يتناقلونه عنه، وكان قد تعدى الستين من العمر وأصبح ولداه على وشك التخرج من كليتي الحقوق والشرطة، وكان أحد أقربائه ممن يعملون معه قد ذكر له أنه قابل المأمور ليوصيه على ابنه الذي يتدرب في المركز، فقال له أنه يعرف الحاج حسن، ثم أضاف أنه مدحه، ولما سأله الحاج عما يقصده بهذا المديح، قال له أنه وصفه بالصبر والدأب والإخلاص والهمة والنشاط، ولم يبد على الرجل السرور بما سمع، فاستفهم منه قريبه عما يجعله ساهما، فقال له في حدة أن هذه بالضبط هي صفات الحمار، وأنه لا يعرف ماذا يفعل حتى يفهم الناس أنه يستحق أن يوصف بأوصاف الكرماء والأجواد، ولعله كان يفكر في الحاج سالم حين انفجر بما في صدره، لكن مشاعره لم تصل إلى الحسد قط، إذ جمعته بالرجل صداقة عَرِفَ بها كل منهما قدر صاحبه فاحترم مزاياه وتغاضى عن عيوبه.

كان الحاج مع ذلك إذا غضب على أحد من أقاربه أو ممن يعملون عنده وصفهم بأسماء الأنعام من كلاب وحمير وبغال وبقر وجاموس، بحيث تأخذ الصفة معناها من مناسبتها و موقعها، ولكنها أبدًا لم تكن تأخذ صفة التجريح القاس أو السب البذيء، بل كانت أقرب

إلى اللوم الرقيق الودود، حتى أنه كان أحيانًا يفتتح بها نصيحة يوجهها إلى أحد أولاده أو بناته اللاتي كن عزيزات على قلبه بلا شك.

ذات يوم جلس إلى الشيخ حسان الذي أخبره أنه لا يحبّ ما يقوله الناس عنه، وسأله عن موضوع كان قد بلغه، من أنه سُرِق منه حزمتان من الجرجير والفجل وحزمة شبت أو بقدونس، فقال له الحاج في زهق واضح أن عليه أن يعلم أنه مُدرك أن الناس يحبون أن يتسلوا على سيرته، خاصة الكسالى ومن لا هم لهم ولا شاغل يشغلهم، وأن ما بلغه عنه صحيح إلا أنه لم يذهب إلى مركز الشرطة كما قال السفهاء ليشكو ويطلب البحث عن تلك الأشياء التافهة، ولكنه وجدها سقطت أمامه وانحشرت بين كرسيه في القطار وحقائب أحد الركاب الذي كان ضابطًا للشرطة، وأن الراكب تطوع ورفع حقيبته حتى تمكن الحاج من التقاط حِزَمَه، وأضاف قائلاً لصديقه أنه واثق أنه سعيد ويتسلى مثل سائر الجهلاء بما سمع عنه، ولكنه لا يكترث لهذه الأمور ولا يعبأ بها، أمّا الحاج سالم فكان يبتسم ولا يُعلق على ما يدور بين صديقيه من نقاش حاد يحتدم أحيانًا ويفتر أحيانًا أخرى.

وفي يوم من الأيام مرض الحاج حسن وعاده الطبيب، ثم فوجئ الناس في القرية برجل غريب يسأل عنه، ولأنهم توقعوا أن الحاج لا يستطيع مقابلته في وقت الغذاء وهو عليل، فإن أهل القرية أخذوه إلى "المضيفة" حيث جلس وتناول طعامه وشرب القهوة، ثم أرسلوا من يستأذن له على الحاج قبل أن يأخذوه إلى داره، وعلم خادم المضيفة أن الرجل صاحب محل للحلى الذهبية "جواهرجي"، وأنه هو الذي رهن عنده الحاج ذهب أمه عندما أراد أن يشترى أرض الخواجة منذ حوالي الثلاثين عاما، وهو الذي ضمنه في سداد باقي الأقساط وأقنع الخواجة بأنه مؤتمن ومضمون، وكان الحاج قد طلب منه إحضار بعض الجنيهات الذهبية حيث سمع أن ثمنها سيرتفع في زمن قليل،

وبالطبع فقد طار خبر الزائر الغريب في أنحاء القرية، ورغم أن الناس قد فرحوا كثيرًا لأنهم عرفوا سر الرجل بعد سنوات طويلة، إلا أن بعضهم شعر وكأنه قد خاب أمله في أن يجد في الأمر ما يخجل أو يعيب، وتساءلوا عن سبب سكوته طوال هذه المدة.

وقال الحاج لعواده في تلك الليلة أنه علم أنهم استدرجوا الجواهرجى في الكلام، وبردت نارهم وهدأ سرهم بعد أن عرفوا الحقيقة... "لكن ماذا تقولون لو أخبرتكم أن حرق المخازن كان مُدَبّرا؟".. دُهش الزوار وظنوه يمزح ويسخر من شكوكهم.. لكنه استطرد وكأنه يتحدث إلى سقف الحجرة: "لقد أخبرني أخي رحمه الله أن الخواجة يوشك على الإفلاس ويطمع في مبلغ التأمين لينقذه، وأنه وعده إن استطاع حرق المخزن ولم يترك دليلاً، أن يضمن لنا شراء الأرض بشروط ميسرة .." وعاد يقول وكأنه يستغفر لنفسه: "صاحب شركة التأمين كان هو الآخر خواجة، وقلنا - أخي وأنا - يسرقوا بعضهما بدلاً من سرقتنا..." وترحم على الحاج سالم والشيخ حسان الذين جهلا مصدر نقوده في أول الأمر، ومع ذلك فلم يترددا في مشاركته شراء أرض الخواجة.

بعد هذه الزيارة بحوالي أسبوع توفي الحاج حسن وكأنه كان يعلم قرب نهايته ففكر واختار أن يذيع سره دون أن يدعوه أحد لذلك، وأزاح بذلك عن كاهله عبئًا آن أوان التخلص منه، ورغم أن الرجل حظي بجنازة مهيبة حيث حرص الناس على مجاملة ولديه، ورغم أن ما تركه من منزل وأرض ومخازن ومزرعة دواجن كان يدل على نشاطه وهمته، إلا أن نوادره وحكاياته بقيت هي الأثر الأكثر بقاء وتأثيرًا في نفوس القرويين من أهل بلدنا الصغير، وتساءل الخبثاء: "هل ذهب الرجل في الوقت المناسب بعد أن كشف سره بنفسه؟ وهل كان يتلذذ بحجب أسراره حتى يتعب الناس في الظن والاستنتاج؟!..

زمار الحي

ما يزال اسمه حيًا محبوبًا بين الناس كأحد نجوم الغناء الذين اختطفهم الموت في ريعان الشباب، فهو من الذين تركوا - برغم ذلك - إرثًا كبيرًا من الأغاني التي أحبها الناس وظلوا يحبونها ويطربون لها، ويجهل معظم معجبيه أنه من أبناء قريتنا، وأنه عاش بها معظم حياته القصيرة التي انتهت بالموت بذات القلب.

عادل هو أحد أبناء أسرة عُرفت باتجاهها إلى التعليم الديني، فقد تخرج والده وأعمامه من الأزهر الشريف، وكان أباه "الشيخ علي" هو معلم الكتاب ومأذون القرية الذي أحبه الناس لدماثة خلقه وسماحته، وعندما توفي والده تاركًا إياه وأمه الشابة، فإن الأرملة رضيت بنصيبها، ووجدت في ولدها عزاءها، وتفرغت لتربيته بلا تردد أو تفكير فيما عدا ذلك ..

ورث عمه "المأذونية" عن أبيه، واعتبر أن واجبه رعاية أسرة شقيقه الراحل، وهو الذي كان له نعم الأخ ونعم المعلم، وكان حب الرجل لأخيه المتوفي وشعوره بالخوف على ابنه الوحيد، قد جعلاه يحرص على أن يُحسن إدارة أرض أخيه، وحثَّاه على مضاعفة العناية بأمر عادل ووالدته.

وكان الفتى عند حسن ظن عمه ووالدته، فقد تفوق في دروسه، إذ كان نجيبًا ذكيًا، وعُرف بالكياسة واللباقة والأدب، ودأب عمه على أن يمتدحه ويفتخر به، لولا ما كان يكدره من معرفته بشغف ابن أخيه "المنكر" بالغناء والعزف على العود، مما اعتبره الشيخ مستهجنًا لا يليق بمن نشأ في مثل بيتهم وبيئتهم، ولكنه ظنها هواية عابرة لن تلبث أن تنسى مع الأيام، ظل يأمل أن يلتحق ابن أخيه بكلية

مرموقة كالطب أو الهندسة أو الحقوق، ولذلك فإن الرجل اعتبر إصرار الفتى على دخول أحد المعاهد الموسيقية أمرًا بعيدًا عن العقل والمنطق، فضلاً عن كونه خروجًا عن طاعته، ورغم أن ضعف بنية عادل، وأدبه الجم قد حالا بين عمه وبين الضغط عليه أو تجاهله، لكن هذا الخلاف لم يمنعه من أن يواصل عنايته بالفتى ووالدته، وظل ظاهريًا على الأقل كسابق عادته.. ولعله خشي إن هو قاطع ابن أخيه، أن يفقد تأييد الحاج سالم والعمدة وتقديرهم، مع من يحذو حذوهم من أهل القرية، بعد أن رضوا به مأذونًا إكرامًا لذكرى أخيه الذي طالما أحبوه، كما خشي أن يبدو في نظرهم جائرًا متجنيًا أو متخليًا عن أسرة شقيقه.

وعلل عادل نفسه ـ من الناحية الأخرى ـ بأن الرجل لن يلبث أن ينسى الأمر، وكان يعرف أن الشيخ إنما يرى في الغناء والموسيقى نوعًا من المجون والعبث وتضييع الوقت، ولابد من التحلي بالصبر إن هو رغب في وصل ما انقطع بينه وبين عمه.

مرت الأيام دون أن تخفف من عمق الهوة التي فصلت بينهما، على أن المودة لم تتلاش، ولم تنقطع الصلات العائلية تمامًا إلا بعد أن رفض العم الموافقة على زواج الفتى من ابنته الصغرى، بعد أن تخرج وعُيِّن مدرسًا للموسيقى في إحدى مدارس المركز، وكان الشيخ حاسمًا عندما رجته زوجته أن يغير رأيه، فبرر لها موقفه بأن الفتى إما أن يظل مدرسًا للموسيقى لا يستطيع توفير حياة رغدة لابنتهما، وإما أن تتحقق آماله ويصبح من المشاهير في عالم الفن، وهو عالم يخافه الشيخ ولا يتمنى أن يجد ابنته مضطرة للعيش وسطه، وتوسط العم الثاني غير الشقيق "الشيخ عمر" عنده في نفس الموضوع بلا جدوى، وخشى الشيخ إن هو ضغط على أخيه أن يأخذ موقفًا من ابن أخيهم، فلم يلح في طلبه، ويبدو أن ابنة العم لم تشأ أن تغضب والدها، فآثرت الرضوخ

آملة ـ كما صارحت والدة عادل ـ في أن يتحول الأب عن موقفه بعد حين.

وبدا الأمر وكأن الفتى الذي عصا عمه قد فشل في أن يكون جديرًا بابنته فأصبح لا يتعامل مع العم وأسرته ـ بعد أن تسلم إدارة أرضه منهم ـ إلا بصورة رسمية جافة أثناء المناسبات التي تجمعهم قسرًا في القرية، واستقل بحياته مع والدته منعزلاً إلا من صداقات محدودة، ومن جهة أخرى فإنه أصبح وقد خاب مسعاه الذي من أجله خاصمه عمه، واعتبره خارجًا عن عادات أسرته، إذ لم يصادفه النجاح في إيصال موهبته في الغناء إلى الناس، وشعر عادل بالقهر والعجز، وحار في أمر نفسه.

تزوجت ابنة العم من أحد الأقارب، وكان على عادل أن يحضر الفرح، وأن يجامل العروسين وأسرة عمه، وبعدها انتقل ووالدته إلى العاصمة تاركًا لعمه عمر إدارة أرضه.

في السبعينيات كانت فرصة عادل الذهبية، حيث بزغ نجمه أولاً في بعض المناسبات الوطنية، ثم استطاع بذكاء واقتدار أن يصبح من نجوم الغناء المشهود لهم، واشترك في عدة أفلام سينمائية دعمت شهرته ومنزلته في قلوب الناس، وعلى الرغم من اختلاطه بأهل الفن وارتياده مجمعاتهم، وإصراره على الحفاظ على ما أحرزه من نجاح، فإنه لم يكتسب أي خصال جديده تخالف ما ألفه ونشأ عليه من حياة ملتزمة وعادات بسيطة، وربما حال تدينه الفطري، واعتلال صحته، ووجود والدته معه دون انغماسه في السهرات وحياة اللهو، وتباعدت زياراته إلى القرية رغم ولعه بها، وحبه لأهلها، ورغبته في أن يُبقي على المودة بينه وبينهم، ربما بسبب انشغاله ـ رغمًا عنه ـ بحياته الجديدة، أو ذلك الجرح القديم الذي آثر ألا ينكأه بهذه الزيارات.

ظل عمه على مقاطعته له وتجنب الحديث عنه، غير أن هذا لم يمنع الفتى من السؤال عن أخباره، ولا منعه من زيارته عندما علم بمرضه، ولا أن يُصرَّ على نقله للعاصمة حيث تكفّل بمصاريف علاجه، وساعد في التوسط لنقل مسئوليات"المأذونية" إلى ابنه الأكبر الذي شكره قائلا: "أنك أكثر رجال العائلة شهامة ونخوة"... وشهد القرويون بوفائه وحبه لأهله وبره بهم.

بالرغم من ذلك فقد نشرت إحدى المجلات لمزًا في ماضي عادل ناسبة الرواية إلى أحد أقاربه وبعض زملائه من أهل القرية، ولاحظت أمه المقال وأحست بتأثيره عليه فتساءلت: "متى يتركه أقاربه في حاله؟"، وتضاعف حزنها عندما تعلل العم بضعف صحته معتذرًا عن حضور زفاف عادل إلى إحدى المطربات الناشئات.

ولم يدم الزواج طويلاً فبعد عامين من العشرة تفاقمت الخلافات إلى أن تم الانفصال في هدوء، بعد أن اتفق الزوجان على أن يبقى ابنهما الوحيد مع عادل وأمه، وعندما عاينت والدته ضيقه وسأمه وتذكرت ابنة عمه التي علمت أنها شقية بزواجها من طبيب من أبناء القرية، وعادتها ذكرى دموعها وهي تلوذ بأحضانها قبيل زفافها إلى ذلك الطبيب، ونظرتها المنكسرة وهي تؤكد لها أنها تعتبرها أمًا ثانية لها، وتعتذر لها عن عجزها عن عصيان أمر أبيها وإن خالف مرادها، عبرت عما يجول في نفسها منذ زمن طويل، فقالت لابنها منفجرة: "سامحه الله - عمك - الذي حرمك ممن كانت تناسبك بلا سبب سوى الغباء الأعمى، وضيق الأفق"... ورفض عادل إطالة الحديث - كعادته - في هذا الأمر وكرَّس باقي حياته لعمله، وللعناية به، وكان حزنه العميق باديًا في أغانيه في تلك المرحلة، التي اختار أثناءها أكثر الكلمات والألحان شجنًا.

عندما توفي عمه، ذهب لتلقى العزاء فيه، فهال أبناء عمه ما رأوه من تحوله وشحوبه، وكانت صحته قد ساءت على إثر المجهود الشاق

الذي بذله في أغانيه الدينية التي ختم بها حياته الفنية، والتي اشتُهر بها أكثر مما اشتهر بأي من أغانيه الأخرى.. ولاحظوا عزوفه عن الطعام فدعوه إلى الاهتمام بصحته، وبعد انصراف المعزين بقى معهم عدة ساعات داعب أثناءها ابن عمه قائلا: "هل ستقبلون أن يثوى جثماني هنا بجوار عمى وأبى؟!". ورغم أن الجميع اعتبروها مجرد ملاحظة عابرة، إلا أن وفاته المفاجئة بعدها بأقل من أسبوعين جعلتهم يتذكرونها كوصية واجبة التنفيذ.

كانت الأم متماسكة طيلة مراسم الجنازة حتى عودتها للعاصمة، إلا أنها فتحت المذياع عندما علمت من حفيدها أن الإذاعة تبث برنامجاً في تأبين ابنها الراحل الذي انبعث يشدو بإحدى أغانيه الوطنية، فلم تتمالك أن اجهشت بالبكاء المر وهي تستمع لصوته وهو يتغنى بأبيات شوقى:

بلدي وإن جارت علي عزيزة وأهلي وإن ضنوا علي كرام

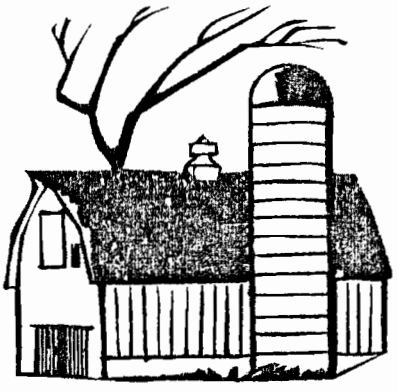

شوك بلا زهر

لا يزال "مسجد الشيخ على البشير" قائمًا بحيث يكون أول ما يطالع القادمين من الجنوب، ويكون آخر ما يرونه وهم يغادرون قريتنا، وما زال الناس يطلقون عليه "مسجد مختار" وكأنهم - دون قصد - أرادوا أن يظل يُذكر القادم والمسافر بقصة هذا الطبيب الذي نشأ بينهم، ودفعته أحلامه وتطلعاته إلى ترك مسقط رأسه، ثم بعودته المأساوية في آخر عمره بعد أن تغيرت أحواله تغيرًا حار فيه كل من عاصروه، وكان المسجد من المباني القليلة التي نجت من السيول التي داهمت المنطقة في منتصف التسعينات من القرن المنصرم، ولعل اختيار ذلك المكان الصخري المرتفع كان السبب في نجاته من الأثر المدمر الذي خلّفته السيول في كل القرية.

مختار أبو العزم هو الابن الأكبر لحلاق القرية، وهو أحد الذين تعلموا القراءة وحفظوا القرآن على يد الشيخ "علي" شيخ القرية ومأذونها الذي توفي في ريعان الشباب وترك في نفوس تلاميذه ومنهم مختار أثرًا عظيمًا، وكان بتصرفاته - قبل أقواله - نعم القدوة والمثل لهم، ورغم تعلقه الشديد بأستاذه، إلا أن حياته الحافلة كانت آخر ما يتوقع الناس من أحد تلاميذ هذه المدرسة.

ويُقال أن الصبى مال في مرحلة الصبا إلى مصاحبة بعض رفاق السوء، وأهمل تعاليم أستاذه الراحل، وكاد أن يضيع لولا حزم والده، ونصائح خالته الكبرى التي كانت قد حُرمت من الذرية واعتبرت أولاد أختها الصغرى - خاصة مختار - بمثابة الأبناء لها، وكانت الخالة التي تعيش في المدينة مع زوجها تُكثر من زيارة أختها، وتحب أن يقضي مختار عندها أجازاته الدراسية، إذ توسمت في الفتى خيرًا وخصته برعاية خاصة.

رغم أن مختار طوال حياته لم يحب أن يُقيد نفسه بأي التزام، ولم يحترم أي علاقة على وجه العموم خاصة صلة القربى، إلا أنه ظلّ طوال حياته يعتبر خالته أمًا بمعنى الكلمة، وكانت تُمثل له الحافز والرادع والضمير الحي، فهي التي ساعدته في إقناع والده بأن يكمل تعليمه، بعد أن أخذ الفقر بخناقه في الثلاثينيات، عندما عانت الأسرة أشد المعاناة، وضاعف من المصاب أن الأم ماتت تاركة أولادها بلا يد رحيمة تعني بأمورهم، وتقضى حاجاتهم، وتخفف عنهم وقع الأوقات العصيبة، واشتدت بهم الضائقة مما جعل الوالد يفكر في البحث عن وظيفة لابنه الأكبر ليساعده دخلها في إعالة أخوته، وترسب في نفس الفتى آنذاك نوع من العداء لأبيه لازمه حتى آخر حياته، كما أن كراهيته للفقر الذي ترك أثره على تلك المرحلة من حياته ظل عميقاً متمكنًا من وجدانه.

سعى زوج الخالة بإيعاز منها عند صديق له ليجد عملاً لأولاد الحلاق في الصيف يساعدون به أباهم دون أن ينقطعوا عن مدارسهم، وكان هذا الصديق - "الحاج سالم" - رجلاً خيرًا من أهل الكرم والمروءة والصلاح، فرأى أن يساعد الأسرة بمبلغ من المال، يدفعه في أول كل شهر كأجر مقدم عن عملهم، حتى ييسر لها الله الخروج من هذا الضيق.

وتكرر موقف الوالد عندما حصل مختار على شهادة الثانوية العامة، ورفض الابن وقاوم رغبة أبيه، وكاد الأب أن ينفذ إرادته برغم ذلك، لكن الحاج سالم تدخّل ثانية بناء على طلب صديقه، ليقنع الوالد أن يوافق على رحيل ابنه إلى المدينة ليقيم مع خالته وزوجها اللذان تكفلا به، وضاعف هذا من شعور مختار بالنفور من أبيه والرغبة في التحرر من أسرته.

وهكذا التحق مختار بكلية الطب، ثم مات زوج الخالة بعد عام واحد تقريبًا، فأصبحت تعتمد على ابن أختها في معظم أمورها،

وكأنما وجد الشاب حجةً لينأى بنفسه تمامًا عن أعباء أسرته، فأصبحت العناية بها حجته وذريعته في هجر القرية، والتملص من علاقته مع والده وإخوته، وأصبحت خالته التي رأت فيه عوضًا عن الولد الذي حُرمت منه لا تقبل فيه قدحًا ولا لومًا، وظلت أمدًا طويلاً تظن أن ما يصلها من ذم في أخلاقه من زملائه في الدراسة، أو ما نما إلى علمها عن بعض الانحراف في سلوكه إنما هو مجرد تعبير عن الحقد والحسد من أقرانه، لنجاحه في دراسته وتفوقه فيها.

عندما رُشح مختار للسفر إلى إحدى الدول الأوروبية فإنه لم يود أن يتكبد عناء زيارة القرية ليودع أباه وإخوته، رغم إلحاح الخالة، لكنه عاد وخضع لإلحاحها وزار أسرته عندما خطبت له في إحدى أجازاته ابنة شقيق أستاذه القديم الشيخ عليّ قبل أن يتوجه معهم خاطبًا إلى منزل العروس.

تزوج الطبيب الشاب وصحب عروسه من القرية إلى الخارج ليستكمل دراسته مصحوبًا بدعوات الخالة، لكن الزوجة الشابة ما لبثت أن عادت خائبة حزينة إلى منزل أهلها بعد أقل من ثلاثة أعوام من الغربة عن الوطن، مصطحبة معها ابنتيها الصغيرتين، ورفضت الحديث عن سبب عودتها المفاجئة، لكن الجميع عزوها إلى سوء معاملة مختار لها.

رجع مختار بعد أن أتم بعثته، وحصل على الدرجة العلمية التي سافر من أجلها، وعمل على أن يصلح من علاقته بخالته التي كانت حزينة لخصامه مع زوجته، وبسبب ما بلغها من مرض الحاج سالم، ورفض مختار رغم إلحاحها أن يزوره، وهو الرجل الذي كان له الفضل في تغيير مسار حياته.

عُيِّن الشاب في إحدى المستشفيات المرموقة، حيث مهدت له درجته العلمية طريق الثراء، وإن شاب سمعته بعض الأقاويل التي وصلت

خالته، لكنها ظلت لا تُلقي بالاً لما تسمعه عن علاقاته السيئة مع زملائه ومرؤسيه، وعن انتهازيته وأنانيته في العمل، وأنه يسيء استخدام وظيفته لتحقيق مآرب شخصية، وإن لم يرضها ما علمته من أنه استغل علاقته بأحد الصحفيين ليسيء إلى "عادل" ابن أستاذه السابق الشيخ علي، الذي كان قد احترف الغناء وأصبح مطربًا مشهورًا، لكن صدمتها الكبرى كانت يوم أن علمت بأنه قد تزوج بأخرى من ذوات المال والنفوذ دون أن يخبرها، وكانت غضبتها شديدة لم تخفف منها تبريراته وأسبابه، وأخذت تكرر "أنه تغير بعد سفره للخارج" بعد أن عز عليها تصديق أن كل هذا كان كامنًا في نفسه منذ البداية.

تعرَّف مختار على أحد مواطنيه الذي وفد إلى نفس البلد التي سافر إليها، كان شابًا من أسرة ميسورة يدرس القانون بناءً على رغبة والده بعد إنهائه للدراسة الثانوية، وحصوله على مجموع ضعيف لا يؤهله للالتحاق بالجامعة، وكان يُمثل نموذجًا للتحرر من التقاليد والإقبال على ملذات الحياة أثار إعجاب مختار، فصار من أقرب زملائه إلى نفسه طوال إقامته في الخارج، وقُدر لهذه العلاقة أن تستمر وتقوى بعد عودتهما إلى بلدهما، كما لعبت هذه العلاقة الجديدة دورًا في تشكيل حياة مختار فيما بعد، فتعرف عن طريق هذا الصديق الثري إلى شقيقته وصديقتها المطلقة التي صارت زوجته، وبعد عودتهما افتتح الصديق مكتبه الجديد للمحاماة فدعا مختار إلى أن يفتح عيادته في مكان ملاصق، وكانت زوجة صديقه وأخته من المترددات على عيادته باستمرار، وممن اجتذبن إليها كثيرًا من النساء من طبقتهما.

بذلك أصبحت عيادته الخاصة ملتقى لطبقة خاصة من الأثرياء الجدد، والفنانين والتجار اللذين بهرتهم درجته العلمية الأجنبية، ومظهر العيادة البراق التي أشرفت زوجته الجديدة على إنشائها

وتأثيثها، وما حفلت به من أحدث الأجهزة التي بالغ في استخدامها والدعاية لها، وتأثرت حياته بهذه الصحبة الجديدة، فتعود السهر وارتياد الملاهي، وشرب الخمر وتدخين الغليون، ولمست خالته هذا التغير برغم محاولته ألا يجعلها تحس به قدر الإمكان تجنبًا لإغضابها، أو إثارة المشاكل معها.

لا يدري أحد بالتحديد ما هي الحادثة التي جعلت صديق مختار ينقلب عليه، ولعل الشائعات التي ربطت وقوفه ضده وإصراره على ملاحقته، وفضح أسراره، مع مرض أخته المفاجئ، ثم سفرها للخارج للعلاج كانت صادقة إلى حد ما، واستشهد الناس على صحتها بما وافقها من خلاف بين مختار وزوجته، وما اشتهرت عيادته به من عمليات محرمة قيل أن شقيقة صديقه كانت إحدى زبائنها، وبرغم ذلك فقد ظلت التفاصيل غامضة، ورفض جميع الأطراف أن يكملوا ما شاب هذه الروايات من نقصان، خاصة وأن التحقيقات تناولت وقائع أخرى تتعلق بعمله في المستشفى، ويُقال أن "صديقه الجديد" علم بها وأمسك بخيوطها بحكم صداقته مع مختار، ثم تتبعها بمهارة حتى نسج منها ما حسبه قضية متماسكة ضد صديقه السابق.

أمّا خالة مختار فلم تدر شيئًا عن هذه الأمور إلا في نهاية المطاف بعد أن كانت الخاتمة قد اقتربت.. ومعظم الأسرار قد افتضحت.

وانهارت المرأة تمامًا عندما بلغها نبأ القبض عليه، وما نُسب إليه من تهم لم تفهم مغزاها، فيما عدا التقصير في عمله، والإهمال، وتبديد عهدته، ورغم أنه سرعان ما تم الإفراج عنه بكفالة، ورغم أنها علمت منه أنه انفصل عن زوجته الثانية، إلا أنها كانت قد فقدت ثقتها فيه نهائيًا، ولم تعد قادرة على أن تبرر لنفسها أو للناس ما لمسته من سوء طبعه، وتهالكه على المعاصي وإغفاله للعلاقات الإنسانية التي لا يتجاهلها إلا من تحجر فؤاده وخلا قلبه من الرحمة، أحست أنها كانت مخدوعة فيه طول الوقت، وتدهورت صحتها فجأة فلم

يُقصِّر مختار في ملازمتها، والسعي لعلاجها والتخفيف عنها، حيث أدرك أنه كان السبب فيما أصاب معنوياتها وأثّر سلبًا على عافيتها .

كان لشهادة شقيقة صديقه - التي عادت من الخارج فجأة - الفضل في تحول القضية تحولاً جذريًا، كما كانت الجلسة التي أدت فيها شهادتها مغلقة فلم يعرف العامة مضمونها.

صدر قرار المحكمة بتبرئته بعد شهور من الألم والمعاناة، ولم يبح مختار لأحد قط بنصيب الحقيقة فيما تناقلته ألسنة السوء عنه، وظل كلما سمع إشاعة تلصق به تهمة أو تنسب إليه جريمة، اكتفى بالصمت بلا تعليق ما، واعتبر الناس هذا التصرف من جانبة تأكيدًا لأسوأ ظنونهم.

وكان واضحًا لهم جميعًا أن نقص الأدلة وصعوبة إثبات التهم هما اللذان كتبا له النجاة، وحاولت خالته جاهدة أن تعرف منه حقيقة ما حدث دون جدوى، إذ ظل يكتم عنها وعن أهله تفاصيل ما تناقله رفاقه، حين ألصقوا به استغلال عمله بالمستشفى لتجهيز عيادته الخاصة، وإجرائه لعمليات لا ضرورة لها إلا لمجرد التربح من ورائها، وعرف الجميع بعد ذلك أنه استقال مجبرًا من عمله بالمستشفى الذي عمل به منذ عودته من الخارج، فتأكدت ظنونهم، كما ظلت تفاصيل زواجه الثاني، وحقيقة علاقته بزوجته طي الكتمان حتى النهاية.

ماتت خالته فحضر أبوه وإخوته الدفن والمأتم، وذُهلوا عندما رأوا د.مختار ولمسوا مدى إهماله لملبسه ومظهره عمومًا، وأحسوا علامات الضعف والتخاذل اللذين حلا مكان الثقة والاستعلاء، وظل والده معه حتى استجمع شتات نفسه فقام بتصفية كل ما كان لديه في المدينة، وهو لا يُظهر اعتراضًا ولا موافقة، وبدا وكأن اليأس والقنوط شتتا أفكاره فصار مذعنًا لكل ما رغب فيه الوالد والإخوة.

عاد مختار إلى القرية حيث بنى ذلك المسجد باسم أستاذه، وبنى عيادة صغيرة إلى جواره، وعاش ما بقى له من العمر كالحاضر الغائب، يقضي نهاره بين المسجد والعيادة ويقضي ليله بين زوجته وابنتيه جسدًا بلا روح، حاول القرويون بشتى الطرق أن يخرجوه من عالمه، ودفعهم فضولهم إلى محاولة استدراجه ليحدثهم عن ماضيه في العاصمة، وعن زواجه فيها بلا جدوى، حتى زوجته نفسها فإنه لم يتطرق معها إلى هذه الأمور، إلا بصورة موجزة حيَّرتها أكثر مما شفت غليلها، فقد امتدح شقيقة صديقه المحامي الذي قال عنها أنها: "برغم أخطائها في حق نفسها كانت دائمًا أقربهم إلى الصدق والنقاء..!"

وقال مرة عن زوجته الثانية: "أنها جعلت من الزواج والطلاق مجرد صفقتين"... وقال عن الشيخ علي: "أنه كان أنقى وأطهر من أن يعمر طويلاً في عالم ملوث"... وعندما علم بوفاة الحاج سالم في الغربة حيث كان يُعالج، ذهب للعزاء مع أخيه الأصغر الذي سمعه وهما في الطريق إلى مكان المأتم يتمتم بصوت هامس وهو شارد وعيناه هائمتان في الأفق تترقرق فيها الدموع:

مشيناها خطى كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض ... فليس يموت في أرض سواها

العمدة

هو عمدة القرية "الجديد" كما دأب أهل قريتنا على تسميته ردحًا من الزمان حتى أصبح قديمًا بحق، وتعود الناس عليه كما تعودوا على المرحوم عمه "العمدة القديم"، وظل الرجل يذكر كلمات العم التي أخذ في ترديدها بنوع من الفخر والاعتزاز بدوره في أواخر أيامه، وذلك حين أعلمه أنه يريده أن يصبح عمدة القرية من بعده، فقد تباهى بأن قريته رغم صغر مساحتها قد اختصها الله سبحانه وتعالى بنعم لا يعرف قيمتها إلا سكان أعالي الوادي، فقد نعمت بالجو المعتدل على مدار العام، ونزل عليها المطر الوفير طوال الشتاء، حتى أن المراعي ازدهرت على الجبال نفسها فضلاً عن الوديان، ولعل هذا كله إنما نشأ بسبب ارتفاع الأرض نسبيًا وقرب القرية من ساحل البحر الأحمر، وعندما شُقت الترعة الجديدة فإن الأرض حظيت بالمياه على امتداد فصول السنة، فتنوعت المحاصيل ونعم أهلها بالخير، وكان العمدة لا يفتأ يكرر أنه لولا المطاريد الذين استوطنوا بعض الجبال القريبة لكانت القرية جنة بمعنى الكلمة، وإن كان الحاج سالم - وهو ابن عم أبيه - يرى أن عائلة الباشا تُمثل خطرًا على القرية لا يقل عمّا يمثله المطاريد، لكن العم والحاج معًا كانا متفقين على أن على أهل القرية وخاصة عقلائها و كبارها أن يعبِّروا عن شكرهم للمولى عز وجل، وعرفانهم بفضله بأن يحافظوا على هذه النعمة السابغة، وأن يحرصوا على تنميتها وحمايتها مما تهددها.

ظل طوال فترة عموديته محبوبًا من أهل قريته، كما عده الجميع من المشهود لهم بالكفاءة وعلو الهمة، وظل المسئولون - ومنهم مأمور المركز - يشهدون له بذلك، فعُرف عنه حسن التصرف والدراية بأمور

قريته وأجوارها، ونسى الناس ما حفلت به سيرته في مطلع حياته من الأخطاء والهفوات، بل لعلهم عدوها - بعد أن تجاوزها وأصبحت مجرد ماض وذكرى - تجارب زادت ذخيرته من الخبرة وعمقتها، وظلت مغامراته في شبابه منبعًا لا ينضب للحكايات التي رددها القرويون وأضفوا بها على شخصه نوعًا من الغموض والسحر.

استفاد الرجل فعلاً من تجارب الماضي واكتسب من معرفته برفاق السوء ودرايته بصنوف البشر خبرة صقلت أداءه وهدت خطواته، كما حرص على أن يكتسب ثقة الناس في القرية فاستعان برأي أصحاب الخبرة، وأحاط نفسه بشيوخ القرية المحنكين الذين لم يضنوا عليه بالمشورة والنصح في الأوقات العصيبة، والحقيقة أنه عرف لهم أقدارهم واحترم آراءهم، وإن اختلف معها كثيرًا في قرارة نفسه، ولم يكترث بلوم خالته (زوجة عمه)، أو زوجته له حين عيرته الأولى بما رأته ضعفًا وتنازلاً منه، وذكّرته بقوة عمه وصلابته، وقدرته على فرض ما يراه صوابًا على الكبير قبل الصغير في القرية، فقد كان يعلم أن الزمن قد تغير، وأن العمدة القديم نفسه لو طال به العمر لعدَّل كثيرًا من وسائله وأساليبه، ولعله كان محقًا فيما ذهب إليه وتمسك به، لكنه عندما استطاع إقناع الباشا الصغير بمساعدته في استئجار إحدى الفيلات الموضوعة تحت الحراسة في عاصمة المحافظة بمبلغ زهيد قبيل اغتيال الأخير على يد خفيره، فإن الشائعات عادت تتناثر في القرية عمّا يدور في الليالي التي يقضيها العمدة في المنزل الجديد في المدينة، ورغم أن كثير من القرويين صدقوا في قرارة أنفسهم ما قيل بلا تفكير، مما شوَّه صورته في الأذهان لفترة ما، إلا أنها لم تتعد الأقاويل التي لا سند لها ولا دليل عليها، فلم يكن لها أثر باق في الأذهان، ولا يتذكر الناس في القرية عنه الآن إلا صورته في سنواته الأخيرة، كهلاً محنكًا قادرًا على التصدي لمشاكل أهله، وتوفير الحلول الملائمة لها بما يتمشى مع العرف والدين.

جرب الرجل اليتم في مطلع حياته، كما جرب الثكل في أواخرها حيث فقد أباه (شقيق العمدة القديم) في رحلة الحج، فكفله عمه، وعاشت أمه مع أختها زوجة العمدة في منزل واحد، حتى توفيت بعد زوجها بعامين فتولت خالته وعمه تربيته كابن لهما، ولم يكن العمدة قد رزق إلا بابنة وحيدة تصغره بحوالي خمس سنوات، فتربى الفتى في كنفهما حيث أنشأه نشأة مدللة ناعمة، لم يحس فيها مرارة اليتم، ومن المؤكد أن ما وجده في منزل عمه فاق ما كان سيجده عند أبيه المدرس متوسط الحال لو طال به العمر، وفي أواخر حياته ماتت ابنته ثم ابنه ولم يجد من يخفف عنه المصاب آنذاك، وبين هذا وذاك عرك أحداثا جسامًا مرت في حياة عمه وبعد وفاته، منها ما أصاب أهل القرية جميعًا، أو خصّ أحدهم، ومنها ما أصابه هو نفسه مع أسرته.

ولعل العيش اللين وتدليل الخالة كانا وراء انقياده لأهوائه، وتعثره في دراسته، وهو ما جعل عمه يكتفي بحصوله على شهادة الثقافة، فترك المدرسة الثانوية بعدها ليشرف على أرضه وأرض العم، ويرعى شئونه، لم يدرك الفتى قيمة ما أنعم الله به عليه من الثراء، ولا مغزى رعاية عمه وخالته التي حمته من أن يقاسي مرارة اليتم بعد وفاة أبيه، إلا بعد فترة الصبا ومطلع الشباب، حين قارن حاله بعادل ابن الشيخ علي الذي فقد والده، وعرف معنى اليتم مبكرًا، وكذلك مختار أبوالوفا الذي فقد الأم، وكان كلاهما يصغره بعدة أعوام مما جعله وفيًا للعم والخالة حريصًا على رضائهما حتى النهاية، ورغم أنه نهض بمسئولياته في رعاية مصالح عمه، إلا أنه في نفس الوقت أقبل على الحياة يغترف منها مُتعها، غير مبال بما كان منها حرامًا أو حلالاً، فنسب إليه الناس الاندفاع والخفة في مطلع حياته، حتى أحس عمه في وقت ما بأن الفتى قد لا يكون جديرًا بما طمح في إعداده له من تولي منصب العمدة بعده، بما يستلزمه من مسئوليات جسام، فقد أشيع

عنه وقتها أنه تعود السهر مع بعض رفاق السوء، حيث أقبل على التدخين وتعاطي بعض المسكرات، وأنه تردد أحيانًا على بعض البيوت المشبوهة في المدينة ليقضى لياليه كلما سنحت الفرصة، وظل العم عازفًا عن ردعه لا يُضيِّق عليه الخناق، برغم أن العاملين لديه حرصوا على إبلاغه بما يبدر منه أولا بأول، فسمع عن سهراته الماجنة في المدينة، وعلاقاته ببعض النساء من عاملات البناء أو التراحيل (الغرابوة) وغيرهن، وظلت الأمور سائرة على هذا المنوال، وظلت نزواته مستمرة، حتى انتحرت ابنة كلاف المواشي الشابة في دوار العمدة، بأن أشعلت النار في نفسها، وعلم العم أن الإشاعات تسرى في القرية بأن ابن أخيه كان على علاقة بالفتاة التي قتلت نفسها يأسًا عندما وجدت نفسها حاملاً منه، وقيل أنها بعد موت أمها قد ترددت مرارًا على منزل العمدة لقضاء بعض الحوائج لخالته، وبعد أن تزوج أبوها ثانية، وضاق منزله بها دعتها زوجة عمه لتعيش بجوار الفرن في الجزء القبلي من المنزل مع خادمتها العجوز، ولم يكن والد الفتاة على علم بشيء، ولا كانت زوجة أبيها تعرف سببًا لإقدامها على قتل نفسها، لكن العم رأى أنّ أوان الحسم قد حان، وأنه لا مناص من أن يتدخل حتى يعدِّل الفتى من سلوكه، ويراعي ما تعود أهله عليه من تقاليد وحرمات.

يُقال أن هذا الحادث كان نقطة التحول في حياته، إذ نأى بعده عن رفاق السوء وحرَّم على نفسه مصاحبتهم، وأقلع عن المحرمات جميعًا، ثم صحب عمه والحاج سالم في رحلة الحج التي عاد منها بوجه غير الذي ذهب به، وسار في طريق التوبة والصلاح حتى لم يبق من أخطاء الماضي إلا الذكرى، وظل الحال كذلك حتى تزوج ابنة عمه، ثم توفي عمه فآلت إليه العمودية تلقائيًا، وأثقلت المسئولية كاهله،

وصار أصحابه في حياته الجديدة هم أنفسهم أصحاب العمدة القديم، وبينما كان العم يعدهم إخوانًا ورفاقًا ومستشارين، أصبح هو مضطرًا لأن يتعامل معهم كإخوة كبار يحترمهم ولا يخالف لهم رأيًا إلا فيما ندر، وتعود الحاج سالم بحكم قرابته له وكون زوجته في منزلة عمته أن يدعوه إلى منزله حيث يجد في صحبة أولاده متنفسًا يعفيه أحيانًا من جلسات أصحاب عمه في المضيفة ودوار العمدة، وتعود أن يُعامل الحاج كأخيه الأكبر ويعتبر نفسه - في نفس الوقت - كأخ أكبر لأولاده الذين ظل يرتاح إلى صحبتهم حتى النهاية، ولا يُذكر أنه اختلف مع الحاج، إلا عندما صادق الباشا الصغير الذي تعود قضاء أجازاته الصيفية في القرية أثناء دراسته في المرحلة الثانوية والكلية الحربية، فقد نصحه الحاج بترك هذه الصداقة مرارًا دون جدوى، وعندما أصبح الباشا من ذوى النفوذ في العهد الجديد، فإنه ساعد العمدة على استئجار إحدى الفيلات في عاصمة المحافظة، واستشاط الحاج غضبًا عندما نما هذا الأمر إلى سمعه، واحتد في الجدال مع العمدة الذي لم يفهم لغضبه سببًا، وإن علم كراهيته القديمة لابن الباشا، الغريب أن خالته التي دأبت على معارضة كل ما يقوله الحاج، والتقليل من شأنه، وافقته هذه المرة على رأيه، وقالت له في خوف: "لقد عُرف عن الباشا الكبير - جد هذا الفتى لأمه - الشدة والقسوة في معاملة كل من يقف في طريق مصالحهم"... وذكّرته بمقتل منافس الباشا في الانتخابات، ثم مقتل ابن زوجته نفسه، وذكرت له عن جد الباشا الصغير قصصًا لم يسمع بها قط إلا منها، كما روت له ما تناقلته الألسنة في القرية عن شذوذ الباشا الصغير، واشتراكه في تعذيب المعتقلين في سجون الثورة.

كان العمدة يعرف أن عمه طالما حمد الله على كون الباشا الكبير وعائلته غرباء عن القرية، ورأي الحاج سالم أنهم أكثر خطرًا على أهلها من المطاريد أنفسهم، وحتى العمدة القديم نفسه فإنه طالما

قال له: "إن الباشا الكبير كالخمر ضره أكثر من نفعه"... وعندما كان يسأله عن سر نفور الحاج سالم من الباشا وابنه، فإنه كان يبدو كمن يُخفي سرًا لا يريد البوح به، وتعود كلما طرق هذا الموضوع أن يكتفي بالاستعاذة بالله، وهو يؤكد له أن الباشا وأسرته لا يجئ من ورائهم إلا الضرر والأذى، وأن الحاج محق في إحساسه نحوهم، ومن ناحية أخرى لاحظ أن الباشا الصغير حاول مرارًا أن يعرف منه تفاصيل مقتل أخيه الأكبر على يد أحد المطاريد، وسأله صراحة في إحدى لقاءاتهما عمّا إذا كان لعبد الرحيم العتريس دورًا في هذا الأمر، وعمّا إذا كان الرجل قد عمل لحساب الباشا الكبير - أبيه - الذي لم تكن علاقته به على ما يرام قط، ولم يُكِنّ له احترامًا حقيقيًا طوال حياته، كما أنه دهش لأنه لم يحاول أن يخفي شعوره تجاه أبيه عمن حوله.

لم تكن خالته ترتاح إلى الحاج سالم، وبالتالي لصداقته وارتباطه به وحبه لأولاده، وكانت تتعلل بالخوف من طموح الحاج وطمعه في منصب العمدة، وأخبرته أنه كان قد تقدم لخطبة والدته وهو في سن الشباب، لكن أبوها رفضه لفقره ولكونه مسئولا عن إعالة أسرته بكاملها إذ كان يسعى لسداد دين أرضهم، فأصبح بذلك عاجزًا عن الوفاء بحاجاته الضرورية، فضلاً عن التفكير في الزواج، وتذكر ما أخبره عمه من أن الخالة - زوجته - هي التي أقنعت أباها برفض زواج أختها الصغرى من الحاج سالم حتى لا تتزوج قبلها، وقال له محذرًا: "إياك أن تعيش أسيرًا لماض لم تعرفه، وإياك أن تستمع إلى رأي النساء في شئون الرجال" .. كما تذكر أن الحاج سالم كان دائمًا عند حسن الظن، وأنه وقف بصلابة إلى جواره في كل الأوقات، ولم يلتفت - في نظره - إلى العمودية كهدف إطلاقًا، ورغم هذا فلم يحس بأن هذا قد غير من موقف الخالة، التي لم تنس أنه طلب أختها الصغرى دونها

للزواج، ثم ما أشيع عن عشقه لابنة أحد كبار الإقطاعيين، لكنها كانت أحيانًا ما تمتدح الرجل دون قصد، كما أنها أخبرته في لحظة صدق بعد أن علمت بوفاة الحاج في الغربة، قصصًا تفيض بالشجن والإكبار عن مآثر الرجل، وأفاضت في الحديث عن فترة شبابه، فقالت مثلاً أنه كان - برغم رقة حاله وقتها - ذا عزيمة حديدية لا تلين، حتى أن أباها تنبأ له النجاح في سعيه لتخليص أرضه من يد الخواجة، وفي تنمية ثروته، وكأنه كان يرى الغيب من وراء ستار رقيق، وأحسّ آنذاك أن الخالة تُخفي نوعًا من الإعجاب الممزوج بالتحدي تجاه الحاج، حتى أنها آلت على نفسها طوال حياته ألا تعترف بفضله ومكانته، وإن كانت في قرارة نفسها ترى فيه مثالا للرجل القوي المسيطر الذي تمنت أن تراه في ابن أختها الذي كان لها بمثابة الابن، وزاد إحساسها بعدم مبالاة الرجل بشعورها العدائى نحوه من عزوفها عن إعادة النظر في رأيها القديم فيه، برغم أن الزمن كان جديرًا أن يسوقها إلى التغاضي والنسيان، خاصة وأنه لم تبدر منه إساءة لها أو إشارة إلى شعورها المتصلب تجاهه من قريب أو بعيد، فلم تتخل عن هذا الإحساس تجاهه إلا بعد موته في الغربة بصورة يبدو أنها مست مشاعرها رغمًا عنها بشكل ما.

وعندما تناقلت ألسنة أهل القرية أخبار سهرات ابن أختها في المنزل الذي اقتناه في المدينة لم تتمالك شعورها، واحتدّت عليه مدافعة عن ابنتها وعن أولادها منه، لكن الكيل فاض حتى هدد شمل الأسرة بسب ما قيل عن علاقته بزوجة الباشا الصغير، التي راح البعض يؤكد أنها كانت تتردد على هذا المنزل في غيبة زوجها، وتذكرت الخالة قصة الحاج سالم الذي وقعت في هواه فتاة يفصلها عنه من الفوارق الاجتماعية ما يفوق الفرق بين العمدة وزوجة ذلك الضابط المتقاعد، وتساءلت: "ألم يجد في الحاج سالم من الصفات ما يقتدي به غير هذا الجانب؟" ..، ومرت الأزمة بسلام وربما تذكر العمدة - رغمًا

عنه - حيرة خالة الدكتور مختار وتأثرها بسلوك ابن أختها بشكل قضى عليها، فقطع كل صلة له بزوجة الباشا الصغير التي لم تعد إلى القرية إلا بعد مقتل زوجها، ولفترة قصيرة، ثم غادرتها إلى العاصمة دون رجعة هذه المرة...

عاش العمدة حياة حافلة بمعنى الكلمة، عرف فيها الخير والشر، كما جرب فيها الأفراح والآلام، وكانت زوجته مثالاً للزوجة الصالحة التي وجد فيها السكن والرحمة، رزقه الله منها أربع بنات وولدين، وعاشت حتى مات وهو في حوالي الخامسة والسبعين من العمر، ثم لحقت به بعد وفاته بشهور قليلة، وكان ابنه الأصغر قد تولى العمودية بدوره، شاركته الحلو والمر في الحياة بلا شكوى أو تذمر، فلم يعرف عنها أنها لامته على ماضيه أو حاسبته علنًا على ما ثار حول سلوكه من شائعات.

ظل الباشا الكبير وأسرته مصدرًا لمتاعب القرية في الماضي القريب ممّا تجلى في الموت الغامض لمنافسه، ثم مصرع ابن أخيه في عهد عمه العمدة القديم، وتصاعدت الحوادث في عهده حتى كادت أن تؤذن بكارثة إبّان الانتخابات التي تنافس فيها الباشا الصغير مع الشيخ عمر،

عاصر العمدة كذلك حصار المطاريد للقرية الذي توَّج أحداثًا جسامًا بدأت بالخلاف بين الشيخ حسان وإخوته وزوجة أبيه، كما عاصر الخلاف بين شقيق الحاج سالم وأولاد أخيه بعد وفاته، وشهد له الجميع بحسن التصرف والخبرة بأحوال قريته والقرى المجاورة، فضلاً عن حياده وعدله في التعامل مع كل ما عُرض له من مشاكل.

ولم تسلم سيرة الرجل حتى في آخر أيامه من الإشاعات، فرغم مواظبته على الصلاة في المسجد، وحسن تربيته لأولاده، وخلو صفحته من أية اتهامات تتعلق بعمله، إلا أن الخبثاء من أهل القرية نسبوا إليه

أنه عاد ثانية إلى الهروب من حين لآخر إلى منزله في عاصمة المحافظة ليغترف من كل ما كان قد تاب عنه من قبل، مع بعض من تعرَّف عليهم مؤخرًا من أهل المدينة، وقالوا أنه كان يجد في جلساته المسائية التي تطول حتى أذان الفجر فرصة للترويج ونسيان مسئولياته وحياته الجافة المملة في القرية، وأنه لم ينس هذه الزيارات ويقلع عنها إلا بعد استشهاد ابنه في حرب أكتوبر١٩٧٣، وكان قبلها قد عانى إلى حد كبير حين توفيت ابنته الكبرى متأثرة بمرض خبيث، لكن الرجل عمومًا تقبل المصابين بالصبر والاحتساب، وحضر أولاد الحاج سالم مع أهل القرية العزاء في المناسبتين، وعندما زاره أكبرهم في منزله صباحًا لمواساته بعد وفاة ابنه، وجده يقرأ في مصحف كبير وقد بدت عيناه منتفختين عليهما أثر السهر، فأدرك أن الرجل لم ينم في الغالب طوال الليل، رآه العمدة فجرت دموعه وهو يغلق المصحف قائلا "لاتُعزنى ولا تحاول أن تخفف من مصابى، فلعل الله سبحانه وتعالى يكون قد كفر عني بعض ذنوبي بفقدى لهما".

وتذكر ابن الحاج سالم ابنة الكلاف اليتيمة التي رقدت ذات يوم بعد انتحارها في نفس الدوار، لكنه لم ينبس ببنت شفة، وعاد العمدة يؤكد أنه راض وقانع طالما أن الله ابتلاه في ولده وابنته بما يشرف ولا ينتقص من قدرهما ولا قدره، وجلسا كما تعودا أن يفعلا في الماضى يحتسيان القهوة في صمت، وقد خلا دوار العمدة حولهما إلا من الذكرى التي لم تقتصر على الفقيدين فحسب، بل حفلت بكل من أحباهم وفرق الموت بينهما وبينهم.

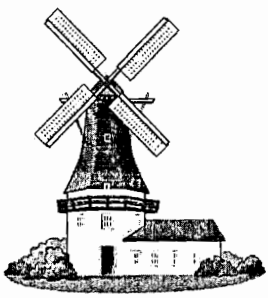

الإرث

١ـ القدر

كان هذا في منتصف الثلاثينيات حين تعود القرويون مشاكل الإرث وألفوها، ولم تكن حكاية الشيخ حسان مع زوجة أبيه إلا إحدى هذه المشاكل العابرة على الأقل في بدايتها، برغم أنّ تطوراتها التي تلاحقت حتى كادت أن تصل إلى القتل قد جعلتها أكثر رسوخًا في ذاكرة الناس كمثال وعبرة، خاصة وأن الأقدار كانت لها الكلمة الأخيرة التي طبعت النهاية بطابعها المأساوي.

توفي والد الشيخ تاركًا زوجته الثانية ولها منه ولد واحد، وذلك بالإضافة إلى ولديه من زوجته الأولى المتوفاة: الشيخ حسان هو الأخ الأكبر الذي بقي في القرية يدير أملاك أبيه، والشيخ حسين الذي أقام في عاصمة الإقليم حيث عمل كمدرس في إحدى المدارس الأميرية، وحدث ما يُتوقع في مثل هذه الظروف من خلاف على الإرث بين الشيخ حسان وزوجة أبيه التي كانت ما تزال صغيرة السن، وكانت قبل وفاة الوالد قد أوشكت أن تنجح في مساعيها لخلع الشيخ حسان من الإشراف على شؤون أملاك أبيه، ولم ينس لها الشيخ ذلك قط.

تصاعدت حدة الخلاف بين الطرفين حتى وصلت إلى التهديد بالتقاضي بل والقتل إن لزم الأمر، وبدا أن كفة الشيخ في البداية راجحة، حيث كان يضع يده على الأملاك موضوع الخلاف، كما اعتبره أقرباؤه كبير العائلة حيث أدار شؤون الأرض والعقارات في حياة أبيه، وكان هذا فيما يبدو هو ما شجعه على ألا يتنازل عن إملاء

شروطه، فسعى إلى أن يبتاع نصيب زوجة أبيه وأخيه الأصغر، على أن يقسط الثمن على عشرة أعوام، أو أن يؤجروا له نصيبها مقابل مبلغ زهيد، بينما أصرت الأرملة وابنها على أن يُعمل عقد للقسمة يمكنهما من حقهما في الأرض وسائر التركة كاملاً يديرانه بمعرفتهما دون وصاية من أحد.

ظل الخلاف مستعرًا والنفوس مشحونة بالعداء والتوجس، حتى آشيع في القرية أن دار الأرملة وابنها قد شهدت اجتماعات "للمطاريد"، وحدس القرويون أن أخا الزوجة ـ وهو من هذه الجماعة من المجرمين الفارين من العدالة ـ قد أتى برفاقه لمساندة أخته في وجه الشيخ حسان، ودفع الخلاف زوجة الشيخ حسان إلى معايرة زوجة الأب بأخيها الهارب، فردت عليهما الأرملة بأنه أفضل ممن يأكلون أموال اليتامى بالباطل، وبعد أيام أطلق مجهول النار على الشيخ حسان ولكن العيار الناري أخطأه، وقيل أن هذه عادة المطاريد حيث يطلقون أعيرة النار كتهديد قبل اللجوء إلى القتل فعلاً، ونصح الحاج سالم والحاج حسن صديقهما بضرورة إيجاد حل لمشكلته مع زوجة أبيه، وإن كانا يعلمان في الواقع حب صاحبهما لأرضه وصعوبة إقناعه بالتخلي عنها.

كذلك استدعى العمدة صديقه الشيخ حسان وناشده ألا يترك الخلاف ليستفحل، وألا يستعدي المطاريد على نفسه وعلى القرية جميعها، وكان الجميع يعلمون أن الجبال التي لا تبعد سوى أقل من خمسة كيلومترات عن القرية إنما هي من المخابئ الحصينة لهذه الطغمة من المجرمين، وقال بعض الناس أن العمدة تلقى تهديدًا من هذه الجماعة بالفعل، حتى يتدخل ويحسم الأمر قبل أن يضطروا لتنفيذ وعيدهم بقتل صديقه.

رغم أن الشيخ حسان بدا غير مكترث، إلا أنه أرسل أسرته إلى منزل أخيه الشيخ حسين في المدينة حتى يأمن عليهم شر هذه

التهديدات، ومن ناحية أخرى فإن الشيخ حسين حضر إلى القرية وقابل أخاه، واتفق معه على أن يبيع له نصيبه في الميراث، ولم يتردد الشيخ حسان في قبول الشراء ودفع له مبلغًا كمقدم، وكتب له صكوكًا بالباقي، تدفع في تواريخ محددة، ورفض الشيخ حسين أن يتدخل أو يتوسط لدى زوجة الأب التي كانت أقرب إلى الثقة به وقبول رأيه لصداقتها الوثيقة مع زوجته، إلا إذا قبل الأخ الأكبر أن يعطيها حقها كاملاً دون قيد أو شرط، وتهامس بعض القرويين أن الشيخ حسين يشكو من علة في كبده وأنه يخشى آثارها، فأراد تخليص حقه في الأرض حرصًا على مصلحة أولاده الذين لايعرفون شيئًا عن فلاحة الأرض.

قبل أن يعود الشيخ حسين إلى المدينة، حضر العمدة مع لفيف من أعيان القرية إلى منزل الشيخ حسان، فأيدوا رأي أخيه وعززوا مطلبه، ويسر مهمتهم أن الشيخ كان يريد أن ينجو من هذا الوضع الحرج، فقبل ما عرضوه، ودعى الأخ الأصغر إلى اجتماع القوم حيث تم كتابة عقد القسمة الذي منح زوجة الأب وابنها حقهما كاملاً مع كامل الحرية في التصرف فيه، وشمل نصيب الزوجة المنزل التي كانت تقيم فيه مع ابنها، وبدا للجميع أن المشاكل قد انتهت فهدأت النفوس، وعاد الجميع إلى منازلهم سعداء بوأد الشر في مهده.

ودّع الشيخ حسين أخواه داعيا لهما بدوام المودة والصفاء، وعادت أسرة الحاج حسان بعدها إلى القرية آمنة، وعزَّى الشيخ حسان نفسه بأنه قد تصرف بما يليق به، وحافظ على شمل الأسرة من التفكك بعد أن ساء مظهرها أمام أهل القرية، وكادت الأمور أن يفلت زمامها وتؤدي الخصومة إلى ما لا يُحمد عقباه، وأن الله قد عوضه بما اشتراه من أرض الخواجة عما تركه لأخيه وزوجة أبيه من ميراث الأب مرضاة لهما وإحقاقًا للحق.

غير أن الأقدار كانت تخبىء مفاجآتها حتى النهاية، فبعد أقل من العام لقى الأخ الأصغر مصرعه وهو يركب سيارته الجديده مع خاله، حيث تعرض لحادث تصادم أودى بحياته، وجُرح خاله جرحًا بليغًا، وخرج الخال من المستشفى إلى السجن حيث قضى عقوبته، ودُفن الأخ الأصغر إلى جوار الأب منهيًا بذلك فصلاً غريبًا من حياة الأسرة نهاية مأساوية مفاجئة أعادت المشكلة برمتها إلى الأذهان، ولم تلبث الأرملة الثكلى أن باعت أملاكها إلى الشيخ حسان، وتركت القرية إلى حيث استقرت مع إخوتها ووالديها في المدينة.

ورغم أن الناس في القرية ضربوا كفًا بكف وهم يعجبون من تصاريف الأقدار التي حلت للشيخ حسان كل مشاكله المستعصية، حين مات أبوه قبل أن يخلعه من الإشراف على الأرض استجابة لرغبة الزوجة الشابة، كما كان موت أخيه سببًا في أن تؤول إليه بقية ثروة أبيه وإن تم ذلك بالشراء والتراضي، ولكن الشيخ ورث مع الثروة همًا دفينًا وخوفًا عميقًا من القدر جعلاه لا ينعم بما سعى وتعب في سبيله، وخاصم فيه إخوته وأهله، وكأنه فقد السعادة وخلو البال إلى الأبد، كما أن القدر - كما سنرى - كان ما يزال يخفي مفاجآته الأليمة التي توالت ولو بعد حين.....

٢ـ العـــودة

في أحد الأيام الحارة الرطبة من فصل الصيف، بعد هذه الحوادث بأعوام طويلة، و بينما كان الناس ينتظرون في لهفة أذان الظهر خاصة أولئك العمال الزراعيين الذين بلغ بهم التعب منتهاه، دخل القطار القرية متثاقلاً ثم غادرها متثاقلاً رغم أنه أفرغ فيها أكثر من نصف حمولته من البشر والأشياء، ولاحظ الخفير وهو عائد من المحطة بحمله المعتاد من الصحف اليومية والخطابات التي سلمها إليه ساعي البريد، أن ثمة امرأة في أواخر عقدها الرابع تدل ملابسها الحضرية على شيء من اليسر، وتحمل ملامحها آثار ملاحة وجمال، قد سارت كمن يعرف المكان ويألفه، وبصحبتها فتى يافع وفتاتان أصغر منه بعض الشيء.

عرف الناس في القرية أن المرأة هي أرملة الشيخ حسين، وأنها عزمت على الإقامة في القرية فعجبوا لهذا القرار خاصة بعد أن باع المرحوم كل ما يملك لأخيه الشيخ حسان قبل وفاته المفاجئة بعدة أعوام، وتساءلوا كعادتهم عن الأسباب، وكان الشيخ حسان قد جهز لهم المنزل الذي كان يومًا ما يخص زوجة أبيه، والذي شهد أحداثا لم تغب آثارها عن باله قط.

ظلت العلاقة بين أرملة حسين وأخيه وأسرته بعد ذلك طيبة تعتبر ظاهريًا مثالاً للمودة والرحمة، ورغم غيرة زوجة الشيخ حسان من الشخصية المستقلة والمحببة للأرملة الشابة، إلا أنها لم تنس أنها استضافتها مع أولادها في عدة مناسبات سابقة، كما أن احتشامها والتزامها مع أولادها بعادات القرية وأعرافها قد أحاطها بالاحترام، وجعل الشيخ وزوجته لايترددان في أن يحثا أولادهما على مساعدتها، وقضاء كل ما تحتاجه هي وأولادها بنفس راضية، وكانت الأرملة بدورها لاتني عن شكرهما وغمرها بهداياها البسيطة.

رغم أن الأسرة الوافدة اعتمدت على الأم فقط إلا أنها أثبتت صلابتها وقوة مراسها، فاستفادت زوجة الشيخ حسين مما سبق أن تلقته من تعليم في إعطاء الدروس لبعض البنات الصغيرات، ولم تستنكف من حياكة ملابس القرويات وبعض زوجات الأعيان، وسمح لها دخلها بتجميل منزلها وزراعة الحديقة بما يفيد من المحاصيل السهلة مثل البصل والفجل والبامية والقرع وما أشبه، كما غدت بذلك قادرة على دفع مصروفات تعليم أولادها والقيام بمتطلبات الحياة مما هوَّن عليها مشقة الطريق الذي اختارته.

ورغم أن الشيخ حسان استغرب هذا النمط من الحياة الذي ابتدعته أرملة أخيه في قريتهم، إلا أنه في قرارة نفسه أكبر تواضعها وروحها العملية، خاصة وأنها لم تطلب عونًا من أحد وظلت قادرة على تسيير أمورها بنفسها إلا فيما ندر، فضلاً عن أن أصحابه في القرية كالوا لها المديح هي وأولادها، وترحموا على زوجها الشيخ حسين الذي أحسن اختيار الزوجة وتربية الأولاد.

لا يدري أحد متى بدأت العلاقة بين الأرملة وزوجة الشيخ في التوتر، حتى أن الناس في القرية تسامعوا أن الشيخ ينوي أن يطالب زوجة أخيه بثمن المنزل الذي هيأه لها، وأن زوجته قد ألمحت بضيق ظاهر إلى أن زوجها قد أنفق على تجديد المنزل والأثاث غير قليل من المال، وأنها - أي الأرملة - لم تدفع إيجارًا للمنزل ولا عرضت أن تشتريه، وعاد الشيخ حسان صديقه الحاج سالم فعاتبه، ودعاه إلى أن يرعى ذكرى أخيه، ويحسن القيام على شئون أهله.

بعد ذلك دعى الشيخ حسان إلى منزل أرملة أخيه حيث فوجئ بوجود العمدة وزوجته عندها، وقامت الأرملة في جرأة غير متوقعة بإظهار بعض الصكوك التي كانت بحوزتها بعد أن تركها لها زوجها، وكانت تُمثل أقساطًا من ثمن الأرض التي باعها زوجها لأخيه

قبل وفاته، والتي لم يكن الشيخ حسان قد سددها، ولا تسل عن حرج الشيخ أمام صديقه العمدة وزوجته.

في نفس الليلة تم عمل عقد تشتري فيه الأرملة المنزل والحديقة باسم أولادهما، ويخصم ثمنهما من قيمة الصكوك، وكتب الشيخ حسان على نفسه صكًا بباقى المال باسم أولاد أخيه، وسلمته السيدة بعدها الصكوك القديمة فمزقها، ورغم أنه كان واضحًا أنها تعمدت ذلك أمام شهود، ولم تلق بالاً إلى ما أصاب الشيخ من مذلة وصغار، حيث ظهر بمظهر آكل حق اليتامى وهو الذي زعم أنه لم يقصِّر في رعايتها وأولادها حتى أنه أطمعهم في كرمه، إلا أن الرجل في قرارة نفسه أحس بنوع من الارتياح ورضا الضمير لم يقدر له أن ينعم بهما طويلاً، وضحك الحاج حسن عندما صارحه صديقه بما حدث، ودعاه إلى نسيان الأمر كله، وألا يجعله يؤثر على علاقته بأرملة أخيه وأولادها، ورغم ذلك فقد ساد العلاقة بين أسرتي الشيخ وشقيقة المتوفى بعد هذه المقابلة شئ من الفتور، ولكن هذا لم يمنع ابن الشيخ من مرافقة أولاد عمه إلى السوق لشراء بعض الحوائج قبيل أجازة الصيف تمهيدًا لسفرهم إلى عاصمة المحافظة حتى يقضون الأجازة مع جدهم، ولاحظ الفتى رجلاً خشن المظهر يتبعه هو وأولاد عمه بسماجة وإلحاح، لاحق الرجل ابنة عمه الكبرى فاندفع الفتى نحوه غاضبًا، وتجمهر الناس في السوق، ولكن الرجل دفع ابن الشيخ دفعة كادت أن تسقطه على الأرض، وفجأة أخرج مسدسًا أطلق منه رصاصتين في الهواء فرقتا كل المتجمهرين، مما أتاح له الفرصة ليركب سيارة كانت تنتظره ملقيًا للفتى خطابًا كُتب عليه اسم الشيخ حسان، وصل الخطاب إلى الرجل في المساء مع ابنه وابن أخيه اللذين سبقتهما أخبار الحادث، فقرأه وهو وجل متوجس، رغم أنه اطمأن على ابنه وأولاد أخيه قبل قراءته.

كان الخطاب ممن سمى نفسه "أمينًا على الحق" ذكّر الشيخ فيه بما بدر منه في حق زوجة أبيه وأخيه الأصغر، وأنذره بانتقام موجع قريب إن لم يعد لها حقهما، حار الشيخ فيمن يكون وراء هذه الرسالة وشعر بالانقباض يمسك بخناقه، ولم يدر ما يفعل لا هو ولا أصحابه، واستشار الحاج سالم الذي كان على وشك السفر للعلاج في العاصمة، فلم يجد لديه ما يشفى غليله.

علمت زوجة الشيخ، وعلمت أرملة أخيه من أولادهما ما حدث، وحدست الأرملة مضمون الرسالة بسهولة غريبة، فعزمت على الرحيل عن القرية خوفًا من الوقوع في متاعب لا ناقة لها فيها ولا جمل، خاصة وأنها تعيش في المكان الذي كانت زوجة الأب تعيش فيه مع ابنها، والذي شهد الفصل الأول من الصراع، وكان جزءًا لايتجزأ منه، وحاول الشيخ حسان مخلصًا أن يثنيها عن عزمها، وهو يلعن الإرث والخلاف بين الأشقاء، ويترحم على أخيه حسين الذي نأى بنفسه عن النزاع والشقاق من الوهلة الأولى.

عاود الشيخ حسان ذلك القلق الذي أحس به عشية وفاة أخيه الأصغر، وبينما عزم على إرسال زوجته إلى المدينة مع أولاده، تملكه الخوف والشعور بالعجز عن درء الخطر المتوقع، ولم يجد ملجئًا إلا في الصلاة والدعاء، وعزز إيمانه بالله وفي قضائه وقدره حتى جعل منه وسيلته وأمله في الخروج من هذه الحالة النفسية الكئيبة التي عادت فتملكته بعد أن ظنها قد ذهبت إلى غير رجعة، وأخذت ذكرى أخيه الشيخ حسين الذي مات في ريعان شبابه تلح عليه، وأحس كأن الخلاف المشئوم على تقسيم الإرث قد بعث بكل عنفوانه.

٣ـ الحصـار

بعد عدة أسابيع مرت في ترقب وقلق تلقى الشيخ حسان خطابًا آخر بنفس الخط يحمل نفس التهديد، أضيف إليه تهديد غير مفهوم بقتل "الرهينة" ما لم يقم الشيخ بإقناع صاحبة المنزل الجديدة ـ وهي أرملة أخيه ـ بالتنازل عنه بعقد صحيح عليه شهود، منهم الشيخ حسان نفسه لصاحبته الأصلية، وكان هذا كافيًا لجعل الشيخ يصر على أن تسافر زوجته مع أولاده إلى عاصمة الإقليم في نفس اليوم، وأحس أن التاريخ يعيد نفسه، وإن لم يعرف ما يقصده كاتب الرسالة بكلمة "الرهينة"، وتحدث مع العمدة في ضرورة تشديد الحراسة على أرملة أخيه الشيخ حسين حتى لا يصيبها ـ أو أحد من أولادها ـ مكروه، وعزم على أن يقنعها باللحاق بزوجته حالما ينتهي أولادها من امتحان منتصف العام حتى يتفرغ لمواجهة المجهول دون خوف على أهله الذين لا ذنب لهم.

فوجئ الشيخ بزوجة أخيه تحضر مع ابنتها إلى منزله لتخبره أن ابنها غائب من الصباح، حيث لم يره أحد من أصدقائه بعد أن ركب معهم قطار الفجر الذي يوصلهم إلى المدرسة، وضاعت محاولاتها في البحث عنه عند معارفهم سدى، وعندما حضر الخفير الموكل بحراستها كلّفه الشيخ بالذهاب معها وابنتيها إلى المنزل وألا يفارقهن مهما كانت الأسباب، ورغم أنه أيقن أن ابن أخيه هو المقصود بكلمة "الرهينة" في ذلك الخطاب المشئوم، إلا أنه حاول تهدئتها، ووعدها بالبحث عنه دون كلل حتى يجده، وقد راعه ما وجده من شرود المرأة والتياعها، وخشى أن تنهار أو تفقد عقلها.

ما أن أذّن المؤذن لصلاة العشاء، وسمع الشيخ صوت آخر قطار وهو يغادر القرية، حتى عاد الخفير إلى منزله ليخبره أن زوجة أخيه غادرت القرية مع ابنتيها في القطار متوجهات إلى المدينة، موصية إياه

ألا يتوانى في البحث عن ابن أخيه الذي هو في عنقه، وأنها عائدة بعد أن تترك ابنتيها عند أهلها في المدينة، حتى لايصيبهما مكروه وسط هذه الظروف.

كانت القرية قد لفها الظلام، وانقطع المارة، بينما تساقطت قطرات المطر متلاحقة، فتزايد الوحل في جنبات الشوارع، ولمع البرق في أرجائها من حين لآخر، مؤكدًا خلوها ووحشتها، ولم يجد الشيخ عزاءً ولا سلوى في صحبة أصدقائه ومنهم العمدة، فهم لم يتفقوا على خطة ناجحة أو رأي سديد، خاصةً وأن الخطر وإن كان وشيكًا، إلا أنه بدا غير معلوم المصدر والتوقيت، وكان الاضطراب قد ساد جلستهم لما رأوه من مستجدات لم يألفوها من زمن بعيد، دلت على استهانة المجرمين بأهل القرية ورجالها، بدءًا بملاحقة ابنة الشيخ حسين وابن الشيخ حسان في سوق المدينة، ثم اختطافهم لهذا الفتى الذي لاذنب له ولا جريرة، وانتهاءً بخطابات التهديد... كان الله وحده يعلم إلام تمضي الأمور.

عندما انفضّ المجلس وعاد الشيخ لمنزله تناوشته الهواجس والظنون، واستعان الرجل على أمره كعادته بالدعاء والاستغفار بعد الصلاة حتى غلبه النوم بعد طول سهاد، ولم يفق إلا على صوت الخفير يدعوه إلى التوجه إلى منزل العمدة، كان الظلام كثيفًا والفجر ما يزال بعيدًا، ووجد الشيخ مع الخفير رجلاً غريبًا سار على أثرهما، همس الخفير في أذنه وهم سائرون أن المطاريد قد أحكموا الحصار على القرية، وأن العمدة ينتظره مع زعيمهم، فدعا الله أن ينجي الجميع من شر هذه الليلة الليلاء، وألا يؤدي المطر إلى انقطاع الطرق والاتصالات بين القرية والمركز فينعدم الأمل في نجدة قريبة.

لم يكن زعيم الجماعة إلا شقيق أرملة أبيه كما حدس، ووجد ابن أخيه المختطف جالسًا في دار العمدة مع القوم، وقد بدا مندهشًا أكثر منه وجلاً أو خائفًا، فطمأنه همسًا على والدته وأخبره بسفرها

مع أختيه، وكان شيخ المسجد حاضرًا وكذلك المؤذن وبعض الأعيان، ورغم أن مواقف الرجال تبدلت تبدلاً عظيمًا، حيث تحول التحمس إلى هدوء، والغضب إلى حلم وحكمة أقرب للخنوع والملق، وتصاعدت إهانات زعيم المطاريد واستهزاؤه فلم ينج منها كبيرٌ ولا صغير.. واندفع رجل من أهل القرية في منافقة المجرمين فوصف حضور الأرملة وأولادها إلى القرية بأنه نحس، وانقلب على الشيخ حسان يلومه على ما أسلف في حق إخوته وزوجة أبيه، ولم ينتبه إلى وجود ابن اخى الشيخ حسان الذي قاطعه مستنكرًا، وعلت الأصوات حتى طلب إليهم العمدة أن يتذرعوا بالصمت، وعاد القوم إلى ضجتهم وضجيجهم بعد برهة، ووجد الشيخ حسان نفسه - دون أن ينتظر - عرضة للهجوم من معظم الحضور وفيهم أصدقاؤه وجيرانه، فظل مأخوذًا لايرد وهو يدعو الله أن يُفرِّج هذه الكربة ويمحو ذلك البلاء.

انتهز الفتى - ابن الشيخ حسين - انشغال القوم بالنقاش، فانسل من المجلس، ثم من القرية كلها، مستترًا بما بقى من ظلام حيث أخذ طريقه إلى المركز عبر الحقول، فأبلغ الشرطة بما جرى ويجري في القرية، ولم يعبأ المطاريد بهروبه كثيرًا، وهم الذين ظنوا القرية قد أصبحت كلها رهينة لا سبيل لها إلى الفكاك إلا بالخضوع والإذعان، وكان أغلب ظنهم أنه لحق بأسرته في المدينة، فلا غرو أن تمتلكتهم الدهشة عندما أحسوا بقلق رئيسهم لهروب الفتى، ثم كان أن تلاحقت الأحداث التي اختلفت في أمرها الرواة.

عندما حل موعد صلاة الفجر استأذن القوم من العمدة وهم في الواقع يستأذنون من آسريهم في الذهاب للمسجد للصلاة، وقبل أن يتم الرجال ركعتهم الثانية، كان صوت الرصاص الذي أطلقه رجال الشرطة يدوي وهم يقتحمون القرية لتخليصها من قبضة المطاريد الذين لاذوا بالفرار، فعاد المصلون كل منهم إلى منزله يدعون الله بالسلامة لأنفسهم وأهليهم.

ولطف الله بالجميع فلم يصب من أهل القرية إلا بضعة رجال كانت جروحهم طفيفة، وولى المطاريد منسحبين مع زعيمهم الذي قيل أنه جُرح جُرحًا مميتًا، وإن كان البعض يؤكدون أنه ما يزال يعيش في الجبل بعد أن نجا وشفي من جرحه.

ورغم أن الحياة عادت إلى سابق عهدها قبل ذلك الحصار، إلا أن هناك أسرارًا ظلت حبيسة الصدور لم يعرفها إلا قلة قليلة من أفراد قريتنا، وظهرت قصصٌ كثيرةٌ عن تلك الليلة لا يملها الناس ولا يعرفون ماذا يكذبون منها وما يصدقون، مثل قصة ذلك المجرم الذي قيل أنه ساعد رجال الشرطة في إنقاذ القرية من قبضة المطاريد رغم أنه كان يُعد واحدًا منهم، وقصة ابن الحاج سالم الذي صنع ممرًا من سطح مخازنه إلى سطح المنزل الذي تحصن فيه معظم المطاريد، معرضًا حياته للخطر، حتى يسهل لرجال الأمن اقتحام مخبأ المعتدين الحصين، وعاش الناس يأملون أن تفصح الأيام عما لم يتحدث عنه من حضر حوادث هذه الليلة بنفسه، وأن يعلموا كل ما دار في تلك الساعات الحاسمة من عمر القرية حتى يميزوا بين الحقيقة والخرافة.

٤ـ ما بعد الأزمة

عندما ينبلج الفجر بعد ليل طويل، وعندما تنفرج الكروب بعد أن استولى اليأس على النفوس، فإن الناس تظل أسيرة لأحداث الأيام الصعبة، لاتنفك تذكرها وتستخلص منها العبر، وربما حلا للناس أن يكتشفوا أسرارًا خفيت عنهم وهم في معمعة المواجهة أو وسط المعاناة والانشغال بالمتاعب والمصاعب، وأن يتأملوا في دلالاتها، وليس حصار المطاريد لقريتنا إلا أحد هذه الأمثلة ينطبق عليه ما ينطبق عليها.

فقد قيل روايةً عن أحد الحضور في مجلس العمدة، والذي استشهد بمأذون القرية وشيخ المسجد، أن هناك سيدتين منقبتين قد حضرتا في القطار قبيل الفجر، وأنهما توجهتا إلى منزل العمدة، وبدا لأهل القرية أنهما لاتدريان مدى الخطر الذي ينتظرهما حيث كان مجلس رئيس العصابة المهاجمة منعقدًا طوال الليل.

كان زعيم المطاريد قد فرغ من تناول طعامه، وجلس بين رجاله ومعه العمدة والشيخ حسان وأصحابهما كالأسرى، وكان الحديث قد طال حول مطالب الرجل والضمانات التي أصرَّ على إملائها إملاءً لتعويض أخته عما لحقها من غبن وإجحاف.

عندما دخلت المرأتان القاعة شخصت إليهما الأبصار، ووقفت إحداهما بعيدًا بينما توجهت الأخرى صوب الزعيم الذي رنا إليها وكأنه لاينكرها، وما أن وقفت أمامه حتى كشفت عن وجهها، وقبل أن ينبس الرجل رفعت يدها لتهوي بها على وجهه بلطمة ارتجت لها جنبات المكان، فبهت الحضور جميعًا وتحرك رجلان من المطاريد نحو المرأة، لولا أن أوقفهما الزعيم بإشارة من يده، وعرف الشيخ حسان في المرأة أرملة أبيه وعرف في رفيقتها زوجة أخيه، وانتظر ليرى ما تُسفر عنه إهانة الرجل قبل أن يتحدث معها ويطمأنها على ابنها.

انهمرت الكلمات من فم زوجة الأب تنعت أخاها بأبشع الصفات، وتكيل له أقسى الشتائم، وتعيره بضلاله وفساد أمره وعقوقه لوالديه، وعلم الحضور أنها بعد أن تناست سجله الإجرامي في الماضي، وفتحت له منزلها على أمل أن يساعدها وابنها على الوقوف في وجه الشيخ حسان، ويمنعه من الاستئثار بميراث أبيه، إذا به يكون سببًا في هلاك ابنها بما يسر له من رفقاء السوء الذين زينوا له شراء سيارة جديدة قادها وهو غائب عن الوعى مما أدى إلى الحادث الذي أودى بحياته وجرح فيه خاله نفسه.

بعد أن خرج الخال من السجن عقب قضاء عقوبته، تظاهر بالتوبة والصلاح، ولكنه حاول التقرب من زوجة الشيخ حسين بعد وفاة زوجها غير عابىء بصدها ورفضها له، ولا بتأنيب أهله وزجر أخته، وعندما هربت الأرملة مع أولادها لائذة بالقرية، طاردها بحجة استرداد حق أخته الضائع من الشيخ حسان، ثم خطف ابنها وجاء برجاله ليحاصروا القرية ويقهروا أهلها على أن يدفعوا لهم ما يطلبون لافتداء أنفسهم.

تبرأت المرأة من كل أفعال أخيها الذي جلس صامتًا لا يريم، واستثارت أهل القرية - الذين جلسوا وكأن على رؤوسهم الطير - ألا يقبلوا الضيم لأنفسهم، أو لمن لجأت إليهم، حاولت صاحبتها أن تهدىء من ثائرتها، وأن تسأل الحضور عن ابنها، وهل ظهر أو أصابه سوء، وطمأنها الجميع في كلمات موجزة بأنه كان بينهم منذ لحظات، ولعله ذهب يبحث عنها وعن أختيه في المدينة.

ويُقال أن الرجل ترك العمدة وأصحابه يتوجهون لأداء الصلاة عندما أذن الفجر، وجلس يتحادث مع أخته التي لم تفارقها عصبيتها وتوترها، وأنه حاول تهدئة روعها وإقناعها بالعودة إلى المدينة مع صاحبتها بلا جدوى.

عاد العمدة ورجاله إلى القاعة بعد أداء الصلاة ليجدوا المرأتين وحدهما، بعد أن هرب الزعيم مع عصابته من وجه الشرطة التي داهمت القرية.

وبينما عادت أرملة الشيخ حسين إلى منزلها لتستريح، فإن رفيقتها لم تدر ماذا تصنع بعد أن حاولت عبثًا معرفة ما حدث لأخيها، فلم تجن إلا الحدس والتخمين، وذهبت كل محاولات صاحبتها لاستضافتها في دارها عبثًا، أمّا ابن الشيخ حسين فقد اعتبره أهل القرية بطلاً، وعادت زوجة الأب إلى المدينة ولم تحضر للقرية بعد ذلك قط.

ما تزال أسرار تلك الليلة تثير خيال أهل القرية، وتستحوذ على اهتمامهم، وتجعلهم يتلهفون على المزيد من الروايات عنها، ومن أمثلة ما تناثر من الإشاعات عن هذه الليلة أن عبد الرحيم العتريس - وهو أحد المطاريد ومن أهل قريتنا أصلاً - قد ساهم في إرشاد الشرطة إلى أماكن زملائه ومخابئهم في القرية، مما أدى إلى حماية أرواح الكثيرين ممن كان المطاريد يحتجزونهم، وقلل الإصابات بين رجال الأمن أنفسهم، خاصةً بعد ما فعله ابن الحاج سالم لمساعدتهم في مباغتة المجرمين في مخبأهم الحصين، ولكن لهذين الشخصين قصة أخرى.

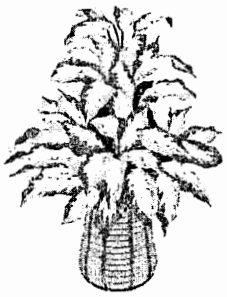

الحـــرية

انطلق في مقدمة الموكب وكأنه يشعر أنه خُلق ليكون في المقدمة، وكأنه برأسه المرفوع وجسده المشدود وشعره المتطاير، وهو يمضي عكس الريح كأنه لوحة للتمرد والاستعلاء على القيد، وكأنه ـ وهو يُقاد ـ هو القائد، وكانت الشمس التي خمدت حرارتها وتركت مركز السماء لتهبط في أول منحنى الغروب تبدو من وراءه وكأنها هالة تعطى لتوثبه وإتقاد حماسه، الخلفية المضيئة الملائمة، أو كأنها تمثل تاجًا لم تكد الطبيعة تخلعه عليه، حتى خلعته عنه تدريجيًا وألقت به ليسقط وراء الأفق.

وما كان الموكب مهيبًا، ولا كان أفراده ممن لهم شأن كبير، فهذا هو سائس الحاج سالم، أو على الأصح خادم الزريبة وكلافها، الذي ينظفها ويسقي حيواناتها، هو قائد الموكب الفعلي ومحدد اتجاهه، وما أفراد الموكب إلا جمل وجاموسة وبقرة، مع حمار الحاج سالم الذي تركه صاحبه للسائس يسوقه مع ما اشتراه من الأنعام من السوق، وسبق هو الموكب في القطار إلى القرية.

كانت الجاموسة أول ما أعجبه فاشتراها بعد فصال سريع، تلاها جمل ثم بقرة، ولم يكن الحاج قد فكّر في شراء حصان مطلقًا، ولكن شيئًا ما في صاحبنا هذا جذب نظره، ربما كان لونه غير المعتاد بين جياد العمل الشاق في هذه المنطقة، حيث اختلط فيه البياض بلون بنى جميل، وربما تلك الغرة البيضاء على جبهته، أو ذلك الشعر المتهدل على طول رقبته حتى أعلى رأسه، والمنسدل على عنق جميل مكونًا معرفة متباينة الألوان، وربما كان ما لفت نظره هي رشاقته أو خفته حين دخل به صاحبه السوق، والحق أن تناقضه مع جو

السوق، وتميزه بين حيواناته، كانا واضحين لكل ذي عينين، وقد لا يكون هنالك من سبب سوى القسمة والنصيب هما الذين جعلا الرجل يدفع هذا المبلغ الذي كان يُعد باهظًا في هذا الجواد الذي لم يتجاوز عمره عامًا واحدًا، ويعود به مع سائر ما اشتراه إلى قريته.

بعد أن وصل الموكب الجائع المتعب حظيرة الحاج، قام السائس بعد استراحة قصيرة فأخذهم إلى حوض المواشي حيث شربوا حتى الرى، وقام الرجل بغسلهم بإتقان وحرص وكأنه يخشى أن يكون بأحدهم مرض معدي، ثم عادوا إلى الحظيرة حيث وجدوا العلف مُعدًا في المذاود، وعندما انسدل ستار الليل كان كل منهم نظيف البدن ملئ البطن، فناموا بعد أن حل عليهم تعب المسير إلى السوق ثم العودة منه، وعندما فتح الجواد عينيه شم رائحة تزكم الأنوف، وإذا الحمار الذي ربطه الخادم المتعب عكس وضع الحصان قد غطى روثه وجه صاحبنا، وسد أنفه، ولم يكن يملك إلا أن يهز رأسه لينفض عنه ما استطاع من الوسخ، إذ أنه عندما نهض يريد البحث عن حوض المياه وجد حبلاً يكبله ويمنعه من الحركة إلا في حيز محدود، ولا ريب أنه أحس بالمهانة والقهر، ولابد أنه فكر في تمزيق قيده والانطلاق بعيدًا عن هذا المكان الذي بدا له في أول يوم وكأنه يتوعده بما لا يطيق من المذلة والامتهان، ولكنه ـ للعجب ـ لم يفعل سوى أن أخذ يتململ حتى وصل الحاج وطلب من السائس أن يرى الحصان الذي اكتراه بالأمس، وما كاد الجواد يحس بالحرية، حتى انطلق إلى الحوض فأغرق رأسه فيه وكأنه يغسل وجهه من سبة لحقته، وعاد بين ضحكات أولاد الحاج الذي راح يحكي لهم أن صاحب هذا الحصان أقسم له أن أباه جواد من أكرم الجياد التي خُلقت للفروسية وسباق الخيل، وأنه أولد فرسهم هذا المهر المتميز عندما حضر في زيارة لهم مع أحد الباشوات، حيث كان يمضي فترة نقاهة بعد أن جرح في سباق للخيل الأصيلة.

اقترح أحد الأبناء أن يخصص الجواد الكريم لجر عربة الحاج الخاصة "الكارتة"، ولم يعترض أبوه، إلا أن السائس أكد أن على الحاج أن يروض الجواد أولاً في العمل الشاق مثل جر المحراث والنورج وإدارة الساقية، حتى يطمئن إلى انصياعه وطاعته إذا عهد له بالأعمال السهلة المريحة مثل جر الكارتة، ولم يشارك الحاج في مثل هذه المناقشات ولكنه ترك للسائس في النهاية أن يفعل ما يراه.

مرت الأسابيع والشهور، وحكايات تمرد الحصان الجديد تشغل بعض أوقات الناس، ويهتمون بها أكثر من اهتمامهم بصاحبها، الذي لايعدو كونه فردًا من قطيع كبير من الحيوانات التي تخدم الناس في هذه القرية وغيرها، وعلى هذا القياس فإن مساحة الاهتمام كانت كبيرة بلا شك، تعدت أحيانًا كل منطق، خاصة عندما أخذوا يتحدثون عن الحصان مستخدمين ضمير الغائب، وينسبون له من ردود الفعل ما لا يُنسب لغير العقلاء من البشر، بدا أن تعلق ابن الحاج الصغير ـ خالد ـ بالجواد المتفرد بالتمرد والثورة أمر طبيعي، وإن كان عطفه عليه لا يُمثل إلا قطرة في بحر قسوة السائس وبطشه، وكانت مظاهر تمرد الجواد تظهر أحيانًا على هيئة ثورة فجائية على قيود العمل، أو خروج عنيف عن مساره، وأحيانًا في صورة رفض للانصياع، مما جعل الكلاف يتولى التهذيب والإصلاح والعقاب، وكأنه سجّان يعالج سجينًا يائسًا متمرسًا على أساليب العصيان، غير مكترث بالعقاب الذي ينزل به في النهاية.

ذات يوم أخذ السائس أولاده خلسة على العربة الكارو إلى الحقل ليجز (أو يحش) بعض البرسيم، وانتهز فرصة غياب الحاج فاستخدم حصانه في جر العربة، وكأنما أبى الحصان إلا أن يعاقبه ويفضح أمره، فانتهز فرصة نزول الرجل من العربة لبعض حاجته، وانطلق بالأطفال وهم يصرخون، حتى اجتمع بعض الفلاحين محاولين الوقوف في طريقه، فما كان منه إلا أن انقلب عائدا ليستقبله الأب الغاضب

الخائف على أطفاله متهيجًا متوعدًا، وبدا أن الحصان قد هدأ حتى اطمأن السائس ونزل الأطفال، وإذا به ينطلق فجأة مارًا بعجلة العربة على قدمه، فأُخذ الرجل الذي فوجئ بالهجوم على حين غرة، وفي نهاية اليوم كانت قدم السائس في الرباط وقد نال من تقريع الحاج شيئًا كثيرًا لاستخدامه حصانه بدون إذنه.

وفي مرة أخرى امتطاه الرجل عائدًا به إلى الحظيرة، وبدأت سرعة الحصان تقل شيئًا فشيئًا كلما اقترب من باب الحظيرة، حتى إذا بلغ مدخلها انطلق فجأة داخلا كالسهم بسرعة مفاجئة، وقبل أن يتمكن الرجل من النزول من على ظهره، فلم يكن هناك مفر من ارتطامه بالعارضة الخشبية التي تعلو الباب، وسقوطه على الأرض، وأنفه ينزف دمًا، غير ما أصابه من الرضوض من أثر السقوط.

كثيرٌ من هذه الحكايات وغيرها تداولها الناس وأذاعوها، فأوغروا صدر السائس ضد الحيوان الأعجم، فأخذه مأخذ الند، وسامه الخسف كلما "تطاول" عليه أو "عصا" أوامره، وكم من مرة قضى الحصان المسكين الليل يدير الساقية، أو يجر المحراث، وكم من مرة جرَّ العربة الكارو وهي محملة بما لا يطيق من الأثقال عقابًا له على ذنب يعلم الله وحده مدى اقترافه له وتعمده إياه.

مرض الحاج وانشغلت به عائلته، وزاره الحاج حسن والشيخ حسان، وتساءل الأول مخاطبًا خالد: "ما هي أخبار حصانك العجيب؟..." وقبل أن يجيب الفتى عاجله بنصيحة ضحك لها الزوار حيث قال أن على خالد أن يقنع أباه ببيع الحصان حرصًا على عقول الفلاحين من أهل القرية الذين افتتنوا به"، وعاد الحاج يقول: "والله كأنه لايشغلهم عن هذا الحصان وتتبع أخباره شاغل"... وتساءل الشيخ حسان عن ثمنه، فضرب الحاج حسن كفًا بكف وهو يقول للحضور: "ألم أقل لكم ؟!"... فأغرقوا في الضحك ماعدا الشيخ حسان الذي نظر إلى صديقه في عتاب صامت.

وانفرد السائس أثناء مرض الحاج بالحصان، فصارت الأعمال المريحة بل والسارة مثل التنزه بالكارتة، وحمل الحاج إلى أصحابه وأقاربه في القرى المجاورة مجرد ذكرى، ولم يبق إلا روث البهائم المتراكم في الحظيرة، ووجه السائس العابس في الحقل مع العمل الشاق المنهك كل يوم.

ذات يوم عاد السائس متجهمًا يصب اللعنات على الحصان الذي غافله وانفلت من إساره في الحقل، وراح يعدو هاربًا حتى جاوز حدود القرية واختفى عن العيون، وظن الجميع أنه ذهب إلى الأبد، وأن حكاياته مع الرجل قد انتهت أخيرًا، ولكنه أُعيد صباح اليوم التإلى من عند أحد أصدقاء الحاج، وعرف الجميع أنه إنما يعشق فرس الصديق، وأنه يقتنص كل فرصة للذهاب إليها في حظيرتها، حيث بدا أن معاملة الخيل كانت أخف وطأة من معاملة صاحبه السائس له، وفي اليوم التالي كان الحصان قد رُبط إلى نورج ثقيل جلس الكلاف على كرسيه، وراح يقوده في تشف في دائرة يمر فيها على عيدان القمح لاستخراج الحب من السنابل، ولم يبد الحصان ثائرًا ولا حتى متململاً حتى بعد اشتداد الحر وتوسط الشمس للسماء، لكن الشيطان أغرى الكلاف بأن يفرقع له السوط، ويلسعه على مؤخرته تأكيدًا لسطوته وسيطرته....

فجأة توقف الحصان حتى ارتطم العامود الذي يتقدم النورج بساقيه الخلفيتين، وقفز الكلاف من على النورج وقد أحس بالخطر، ثم حاول عبثًا أن يتقدم ليمسك بلجام الحصان الذي تصبب بالعرق وجحظت عيناه وتلاحقت أنفاسه، وقبل أن يصل الرجل إلى اللجام ارتفعت قدما الحصان الأماميتان وكأنه يهدد من يقترب منه ويحذر الجميع، وما هي إلا لحظات حتى اندفع الحصان كالسهم على الطريق الزراعي، وكأنه حيوان مفترس يطارد فريسته، جارًا وراءه النورج الذي أحدثت سكاكينه صوتًا مرعبًا على الطريق، وكان

الحصان الهائج وما أثاره من نقع وغبار مصدر خطر داهم لكل من كان مارًا، فأخذ الناس يهربون إلى جوانب الطريق مفسحين له المجال للانطلاق، واستمر المنظر الرهيب دقائق معدودة، ثم بدأت سرعة الجواد على أثرها تقل شيئًا فشيئًا، حتى وقف تقريبًا، ولكن النورج المندفع ضرب قدميه من الخلف، فعاد يجري كمن به مس، وتكرر المشهد مرة أخرى، وفي المرة الثالثة انكسر العامود الذي يفصل بين السكاكين وساقيه الخلفيتين، فصار الحصان كلما وقف اندفعت الحدائد المدببة تغوص في قدميه، ولولا أن الإعياء والنصب تملكاه، وأن الحبل الذي يربطه بالنورج انفلت، لظل الحصان المسكين يتعرض لتقطيع السكاكين لقدميه إلى ما شاء الله.

توقف المشهد الرهيب بعد أن أخذ منه التعب كل مأخذ، وعاد وقد أمسك به جمع من الفلاحين وكأنه سجين هارب، وقع ثانية في الأسر بعد أن كاد ينجح في الفرار، ومضى وهو يعرج إلى حيث ربطوه، فرقد وقد تصبب منه العرق، وعلاه الغبار، وتساقط الزبد من فمه، وشهد ابن الحاج الصغير جانبًا مما حدث فلم يتمالك واجهش بالبكاء.

بعد ساعتين حضر البيطار فحقنه بمهدىء، ثم طهر جروح قدميه ولفهما برباط معقم، وبات الجواد لأول مرة في غرفة نظيفة كانت مخزنًا للغلال، وبعد أسبوعين كان يستطيع المشي بصورة طبيعية تقريبًا.

عندما أبل الحاج من مرضه واحتفل بشفائه، دعا المأمور مع لفيف من رجالات المركز إلى وليمة كبيرة، وقد ضحك المأمور لنوادر الحصان المتمرد، وأصر على رؤيته، بل أنه عرض على الحاج ـ كما قيل ـ أن يشتريه بضعف ثمنه، وكان السائس يسمع الحديث وهو يكاد يتميز من الغيظ لما يلقاه عدوه اللدود من التكريم والاهتمام،

خاصة وهو مضطر إلى أخذه بنفسه إلى حيث يراه الضيوف، ويعاينونه ويبدون الإعجاب والفضول بشأنه.

أمّا ما حدث للحصان بعد ذلك فهو مثير للدهشة حقاً، ففي اليوم التالي كان الحصان قد اختفى، لم يكن في الغرفة الجديدة، ولا كان في الحظيرة القديمة، كما وأنه لم يكن عند فرسه الحبيبة ضيفاً على صديق الحاج، زعم الناس أن السائس رغم أنه بحث عنه باجتهاد وهو يقسم أن يؤدبه لو عاد، ورغم أن الحاج أظهر الحزن لاختفائه، إلا أنه عزى نفسه بأن اعتبرها سرقة عادية مما كان يحدث في مثل هذه القرية، واحتسبه عند الله، ولم يترك حادثة اختفائه تُعكر فرحته بالشفاء، فتجنب الحديث في أمره مع أي إنسان في القرية.

زعمت إحدى خادمات في منزل الحاج سالم أنه باع الحصان إلى مأمور المركز الذي أعجب به بمبلغ كبير، وأن الحاج إنما يخفي هذا الأمر عن الجميع خوفاً على شعور ابنه خالد الذي كان يحب هذا الحصان حبًا شديدًا، ويبدو أن هذا هو في الغالب ما حدث بالفعل، أمّا ابن الحاج فقد ظل يراه طويلاً في أحلامه وهو مُقيد بسلاسل ثقيلة، والرجال الغاضبون يحيطون به من كل جانب، ورغم نظراتهم القاسية والسياط في أيديهم إلا أنه كان واثقاً من قدرته على الخلاص، وفجأة انطلق يعدو أمامهم وهم عاجزون عن اللحاق به، علت هامته وتطاير شعر معرفته وهو يجري عكس اتجاه الريح، ثم أخذت قيوده تتساقط واحدًا تلو الآخر، حتى تخلص منها جميعًا فاندفع مبتعدًا وقوائمه لا تكاد تلمس الأرض، حتى كأنه يوشك أن يطير، ويظل شبحه يعدو هاربًا حتى يختفي وراء الأفق فلا يدري أحد أين ذهب.

المهمة الأخيرة

كان عبد الرحيم العتريس صديقاً للشيخ عمر الأخ غير الشقيق للشيخ علي مأذون القرية برغم اختلاف الميول والمشارب، فقد كان عبد الرحيم من أسرة متواضعة حيث عمل والده وإخوته كأنفار باليومية في القرية، أمّا الشيخ عمر فكانت والدته على شئ من الثراء سمح له باقتناء منزل في عاصمة الإقليم حيث عمل بعد تخرجه من الأزهر الشريف، كما كان والده لا يُعد من فقراء القرية حيث ترك قطعة أرض اقتسمها بعد وفاته مع إخوته (الشيخ علي وشقيقه)، ولعل عبد الرحيم لم ينل قسطاً من التعليم إلا لأنه عمل فترة مع الشيخ علي، وهو معلم الكتّاب الذي جعله يحضر دروسه مع أبناء القرية، فتعلم القراءة والكتابة، وحفظ شيئًا من القرآن، ثم عمل بعد ذلك كحارس لمنزل أحد الباشوات في الحلمية حيث أقام لفترة قصيرة، ثم قيل أن الباشا علم ذات يوم أنه على علاقة ببعض الشباب العابثين ممن لهم سمعة سيئة في حيهم، فلم يتردد في طرده وقطع عيشه، وإن ظلت القصة الحقيقية وراء طرده من منزل الباشا غير معروفة بالتأكيد، فقد أشيع أنه علم بعلاقة الباشا بفتاة كانت تعمل مع أمها لديه.

لجأ عبد الرحيم إلى الشيخ عمر الذي درس وقتها في الأزهر، فأكرمه وآواه في منزله، ووجد له عملاً عند أحد تجار حي الحسين، فأتاحت له معرفته بالقراءة والكتابة أن يكون ذا نفع عند صاحب المحل، وقضى عبد الرحيم فترة جاور فيها الأزهر الشريف، وقرأ فيها الجرائد لصاحب العمل، فعرف أخبار الدنيا، وصلى الفروض كلها، وحضر بعض الدروس في مسجد الحسين، وظل طوال حياته يحن إلى تلك الأيام التي لم تطل لأن التاجر استغنى عنه بدوره في منتصف

الثلاثينيات بعد أقل من أربعة أعوام، فاختفى وسط انشغال الناس بالأزمة الاقتصادية التي أمسكت بخناق الجميع، وحتى صديقه الشيخ عمر لم يدر أين ذهب، ولا أين اختفى طوال هذه الفترة، وتناقل معارفه حكايات عن انغماسه في بعض النشاطات الإجرامية كتجارة المخدرات، وحراسة بعض البيوت المشبوهة التي تضم نساء احترفن البغاء أو مارسنه خفية.

مرت سنوات وسنوات قبل أن يصبح معروفًا لدى أهل القرية أنه يعيش مع المطاريد في الجبل، ورغم أنه لم يكن مجبرًا على ذلك، إلا أن بقاءه هناك يسَّر عليه مصدر رزقه ومهنته الجديدة، وهي القتل بالأجر..!، ولعله آثر الاختفاء عن الأعين بعد كل جريمة أو سرقة تحدث في قريتنا أو ما حولها، لعلمه أن الجميع سيشيرون إليه بأصبع الاتهام، ثم رأى أن يبتعد عن الأحداث نهائيًا لفترة من الزمن حتى ينسى فيها الناس أمره، كما أنه أحس بشعور أهل القرية العدائي نحوه، ففضل ألا يتعرض للعيش منبوذًا بين ظهرانيهم.

ظلت الصداقة بينه وبين الشيخ عمر الذي تردد أحيانًا على القرية لقضاء مصالحه، بعد أن عمل واستقر مع عائلته في المدينة المجاورة مستمرة رغم استنكار القرويين ودهشتهم، وكانوا موقنين - رغم عدم رضاهم - أن الشيخ ينصحه ويدعوه إلى نبذ هذه المهنة الكريهة، ولكن هذا لم يؤد لشئ، فلا عبد الرحيم تاب، ولا الشيخ قاطعه، مثل سائر إخوانه وأهله، وتأخرت النهاية المتوقعة لهذه الصداقة طويلاً، وطال أمدها حتى أن الحاج سالم سأل الشيخ عمر ذات مرة: "ماذا يقربك من قاتل سفاك للدماء يرتزق من قتل الأبرياء ولحساب كل من يدفع؟"... ورد الشيخ في هدوء : "لعله يعود عن ضلاله يومًا ما.." وسكت الشيخ برهة متفكرًا في حزن ثم أضاف: "علينا أن نعرف من المسئول عن انحرافه، ونحاسبه قبل أن نرميه بحجر".. ولكنه أدرك أن الحاج

الذي عرف والد عبد الرحيم وإخوته، لايميل إليه عمومًا، وإن لم يناصبه العداء صراحةً قط.

الغريب أن الباشا الذي سبق أن طرده من قصره كان من بين زبائنه وعملائه الذن انتفعوا من مهنته الجديدة، إذ أنه أغدق عليه المال دون سبب ظاهر، ويُقال أنه هو الذي دفع مأمور المركز الذي قبض على المطاريد أثناء حصارهم للقرية أن يذكر في المحاضر الرسمية أن عبد الرحيم العتريس كان هو الذي أرشد قوات الأمن وساعدهم في القضاء على المجرمين قبل أن يصاب أحد من أهل قريته بأذى، ولما لم تكن هناك تهمة محددة لعبد الرحيم، فقد سهَّل هذا له أن يفكر جديًا في نبذ حياة الأشقياء والمجرمين، وأن يعود إلى قريته ليعيش وسط أهلها.

عندما عاد عبد الرحيم إلى القرية واستقر بها كانت الأمور قد هدأت والسبل قد مهدت، فبدا كبطل تاب عن ذنوب الماضي وفتح صفحة جديدة، حين كاد أن يفقد حياته وهو يدافع عن قريته مع الشرطة ضد المطاريد، ومع هذا فإن الفلاحين ساورتهم الريبة في أمره كله، ولم يظهروا احتفاء ولا ارتياحًا يتناسب مع شجاعته ومروءته.

اشترى عبد الرحيم قطعة أرض ومنزلاً، وبعد شهور قليلة تزوج من إحدى الفلاحات اللاتي يعملن في قصر الباشا، وعندما ظهرت علامات الحمل على زوجته، سارع بتحويل الدور الأول من منزله إلى محل للبقالة، وجعل الفراندة (الشكمة) محلا للجزارة، يعلق فيها عجلاً ذبيحًا كل خميس بعد أن يدور به الأطفال يزفونه في القرية، وعندما ولدت زوجته ابنه البكر، رأى الناس اللافتة تعلو محله الجديد "بقالة وجزارة عبد الرحيم العتريس وولده"، وظل يومين أو ثلاثة يوزع الشربات، وشاركه في الاحتفال بمحله شقيق زوجته العائد إلى القرية، وشقيقتها الصغرى كذلك، أما حماته فقد جلست صامتة تحمل حفيدها، وهي لاتكاد تصدق.

ظل أهل القرية كما سلف لايصدقون قصة التوبة والبطولة التي أضفتها المحاضر الرسمية على العتريس، كرروا أن من عادى المطاريد - إن صحت قصة بطولته - لن يجرؤ على العودة للقرية والعيش بين أهلها بلا خوف من الانتقام، وظلوا يتذكرون حكاية قتل منافس الباشا في الانتخابات بعد أن كاد يفوز عليه، مما جعله مستعدًا لعمل أي شئ حتى لايفقد مقعده في البرلمان، وعندما تزوج الباشا في الماضى من أرملة أخيه الثرية رغم عدم رضا ابنها الوحيد عن ذلك الزواج، وإصراره على عدم حضوره، فإن القرويين تنبأوا بالمتاعب، وظل ذلك الابن مصدر قلق للزوجة حتى بعد أن أخذ نصيبه من تركة أبيه وابتعد عن القرية، وكان الباشا قد أنجب من زوجته ولدًا، وحاول أن يسترضي ابن أخيه بدعوته مرارًا لقصره لكن الأخير عانده وظل على موقفه وعدائه، وشاع أنه أدمن الشراب والقمار وأنفق ثروته التي ورثها عن أبيه في اللهو والمجون، ولم يعد أمامه إلا عمه فأخذ يتردد على القرية يهدده ليعطيه ما ينفقه على ملذاته، وعندما وُجد قتيلا بعد أن غادر قصر الباشا ذات ليلة، تهامس القرويون أن الباشا لم يجد سوى اللجوء لعبد الرحيم في نهاية المطاف، بعد أن فاض به الكيل، هذا بالطبع غير ما نُسب إليه من جرائم في بعض القرى المجاورة، ولم يقدَّر لأحد غير الرجل أن يدرك مدى صحة هذه المزاعم والأقاويل.

ظل الناس في القرية لاينسون هذه القصص بعد أن مر عليها زمن طويل، وظل دم المنافس في الانتخابات وابن الأخ الفاسد في نظرهم على الأقل في رقبة عبد الرحيم، أما هو فإنه تجنب ذكر ماضيه تمامًا إلا ما يمس تلك الفترة التي قضاها في الأزهر، حين كان يتردد على مسجد الحسين، وحرص على أن يقضي وقته في العناية بدكانه ومنزله وزوجته التي كانت حاملاً للمرة الثانية، وأحيانًا كان يقضي الليل في القهوة، أو في زيارة الشيخ عمر كلما حضر للقرية، كما زار قبر الشيخ علي، وقرأ الفاتحة على روحه أكثر من مرة، وكرر في

كل زيارة للمقابر أمام كل من حضر من أهل القرية أن فضل الشيخ وإخوته عليه لاينسى ولا ينكر، وأنه هو أبوه الروحي الذي علمه كل ما يقربه من ربه ويصلح به أمره.

أصبح ابن الباشا ضابطًا في الجيش، وعندما قامت الثورة واستولت الحكومة الجديدة على أملاك الإقطاعيين كان الباشا الصغير قد وزع ثروة أبيه على نفسه وأخته وأقاربهما، وباع الباقي قبل أن تطولها القوانين الجديدة، ومات الأب متأثرًا بالشيخوخة والقلق على نفسه وأمواله، وناقمًا على كل شيء، إذ أنه لم يكن مرتاحًا لرجال الثورة، وحضر كثير من الزعماء الجدد سرادق العزاء، فتهامس القرويون أن ابن الباشا هو الذي عَهِد إليه رجال العهد الجديد بتعذيب المعتقلين السياسيين، وأن له صفحة سوداء حافله بالتجاوزات، وتوقعوا له جزاء سنمار عن قريب، وحكا بعض أهالي ضحاياه من أجوار قريتنا عن وحشيته حكايات تقشعر لها الأبدان.

وعندما طُرد الباشا الصغير من الجيش، وحضر للإقامة في القرية، تعددت الإشاعات عن سبب الإقالة والطرد، وكان زعيم الثورة الحقيقي قد أخذ بزمام الأمور بعد فترة عصيبة، وتلاحقت الحوادث في العاصمة وتواصلت الصراعات على السلطة، فانقلب بعض رجال الثورة أكثر من مرة على زعيمها الجديد، لكن محاولاتهم باءت بالفشل، وبدا أن هذا كان إلى حد ما لمصلحة ابن الباشا الصغير، فقد بدأ يخرج عن عزلته، وأخذ ينتقل بين القرية والمركز وعاصمة الإقليم، وبدأ في الإعداد لانتخابات مجلس البرلمان التي سُمح له أن يرشح نفسه فيها، وفوجئ الناس بأن الشيخ عمر قد رشح نفسه أمامه معتمدًا على عزوته وأقاربه، وكان الناظر إلى توجهات حكام البلاد المعادية للإقطاع ورأس المال، ورموز الحياة التي سادت قبل الثورة، يدرك أن الكفة تميل لصالح الشيخ، وأن الأيام القادمة تخبئ

هزيمة أخرى للباشا الصغير الذي لم يُسمح له بدخول معترك الحياة السياسية إلا بعد أن تذلل للزعيم الجديد ولمن حوله.

كانت امرأة العتريس حاملاً على وشك أن تضع للمرة الثانية، وتوقع الطبيب ولادتها في أقل من شهر، فأمسى مشغولاً بالإعداد لليوم الموعود بالاتفاق مع حماته وشقيق زوجته، وعندما حضر عطوة خفير الباشا بوجهه العابس يطلب منه مقابلة الباشا الصغير، فإنه ذهب على الفور، وعاد عبد الرحيم من المقابلة مهمومًا متجهمًا، فلم يتوجه إلى المنزل وإنما ذهب إلى منزل الشيخ عمر، الذي قابله بترحابه المعتاد أمام كل أقاربه وزواره ومؤيديه في حملته الانتخابية، ولكن الشيخ الذي اختلى بعبد الرحيم بناء على طلبه سرعان ما علا صوته وهو يلوم صديقه قائلا: "لو تصورت أنه سينسى أنك قاتل أخيه الأكبر فأنت واهم، وعاد صوته يعلو وهو يؤكد: "أنا لا اخاف إلا من الذي خلقني"... وهمهم عبد الرحيم بكلام غير مفهوم وهو ينصرف من لدى صديق عمره، وبدا مضطربًا أشد الاضطراب، وظهرت عليه علامات الخوف والارتباك لأول مرة أمام أهل القرية.

قاطع الرجلان بعدها بعضهما البعض، فانشغل الشيخ بالانتخابات وبقى عبد الرحيم بانتظار المولود القادم، حتى الحاج سالم فإنه قال لعبد الرحيم عندما ذهب إليه ليتوسط لدى الشيخ عمر، أنه لايحب ابن الباشا ومن يعملون لديه، إذ لم ينس له أنه رفض توسطه لديه لرفع الظلم عن بعض المزارعين، وأنه طلب منه في غطرسة وكأنه يطرده ألا ينسى نفسه ويتدخل فيما لا يعنيه، في النهاية قال الحاج: "ومن العيب أن تبيع صديقك الوحيد من أجل هذا الظالم".

حدس الناس أن عبد الرحيم يتوسط كي يتنازل الشيخ عن ترشيح نفسه، وتعجبوا من سر هذا الولاء للباشا الصغير الذي دفعه لهذا، وعن حقيقة شعوره تجاه صديقه القديم، وأحسَّ الرجل بالحيرة والتعاسة وأن الأرض قد ضاقت به وإن ظل على صمته وغموضه.

في الصباح عاد عطوة يبحث عنه، وعندما وجده في محله أخذه إلى سيارة الباشا التي نقلتهما إلى المركز حيث نزلا أمام منزل منعزل ذى حديقة واسعة، عبراها ودلفا إلى داخل المنزل فتوارى عطوة فجأة، طالعه وجه الباشا الصغير جالسًا إلى مائدته يحتسي الشاي بعد الإفطار، أقرأه عبد الرحيم السلام فلم يرد، بعد برهة سأله عن أحواله، ثم تساءل فجأة عمّا إذا كان يعرف ماذا جعله يطلبه، رد الرجل سلبًا، فابتسم الباشا في ثقة وهو يقول أنه يريده في مهمة من تلك المهام التي تعود القيام بها لوالده، سقط قلبه في قدميه وبرزت أمامه صورة الشيخ عمر وهو يقول له أن الباشا الابن لن ينسى ما فعله بآخيه، انطلق يؤكد أنه تاب وكبر في السن، ولم يعد قادرًا على القيام بمثل تلك المهام، وأنه قد أعد جواز السفر ليؤدي فريضة الحج. بعد أن تلد زوجته ويطمئن عليها، علت وجه الرجل ابتسامة قاسية وأومأ له بيده أن ينصرف، وكأنه قد ملَّ الحديث فجأة فأسرع إلى الباب لا يصدق بالنجاة.

وهو يغادر المنزل أحسّ كأنما سقط شيء على مؤخرة رأسه فاسودت الدنيا أمامه ثم سقط على الأرض بعد أن أحس بهبوط حاد قبل أن يفقد الوعى تمامًا، وعندما استيقظ وجد نفسه في غرفة ضيقة رائحتها تزكم الأنوف، انهالت على جسده الصفعات والركلات، وسُبَّ بأقذع السباب، وذُكِّر بأفضال الباشا الكبير عليه، وفي المقابل قُرِّع على نكرانه وخسته ولؤم طبعه، أقسم أنه تاب، فضوعف له العذاب، حتى كاد أن يفقد الوعي ثانيةً، انهمرت كلمات التحقير والتهديد فانهارت مقاومته تمامًا، وأقر برغبته في الإذعان، وتعهد أن يقوم بكل ما يُؤمر به.

خرج من الغرفة اللعينة بعد أن عرف أن رأس الشيخ عمر هو المطلوب، وعين عطوة مرافقًا له ضمانًا لقيامه بالمهمة على أكمل وجه، سلمه عطوة مبلغ ألف جنيه، وقطعة سلاح لا يعرف قيمتها إلا

من كان مثله.. بندقية خفيفة الوزن جميلة المنظر لها نظارة معظمة تجعل إصابة الهدف أمرًا مُحققًا، اغتسل وغير ملابسه واتصل بزوجته وأخيها معتذرًا عن تأخره، وأبلغهما بضرورة تغيبه لطارىء غير متوقع، وأوصى الأخ بالعناية بزوجته وابنها حتى يعود.

تدرب سرًا على السلاح الجديد، وحرص عطوة على أن يتدرب على مسدسه معه، فراعته دقتهما وسهولة استعمالهما، مرت الساعات قبل اللحظة الموعودة ورأسه مشتعل بالأفكار السوداء، فها هو خفير الشؤم يراقب خطواته، ويعد عليه الأنفاس، ومسدسه مستعد للانطلاق إذا ما سولت له نفسه مخالفة الاتفاق، الذي لم يقبل به إلا بعد أن كادت أن تزهق أنفاسه تحت وطأة العذاب، وساءل نفسه: هل ما يزال من حقه أن يطلب من الله أن يخلصه مما هو فيه بعد أن أثقلت كتفيه الأخطاء والآثام؟..

تذكر عمله في مطلع شبابه في سراي الباشا "بالعاصمة".. عندما حضر ابن أخى الباشا - ابن زوجته - مع والدته، وتلك الليلة التي قضياها في القصر، ولولا لطف الله لاستطاع الفتى أن يظفر من الخادمة ليلتها بما وسوس له به شيطانه، فقد سمع العتريس المرأة وهي تتوسل له أن يرحمها بعد أن تسلل إلى غرفتها مخمورًا قرب الفجر، وكان جزاؤه عندما تدخل لإنقاذها أن طردته زوجة الباشا في اليوم التالي، بعد أن هددته بالسجن إن هو فاه بحرف عن هذه الواقعة.

وتذكر عندما طلب منه الباشا "إيحاءً" أن يخلصه من ابن أخيه، وكيف قام بالمهمة على أكمل وجه، وهو يتذكر ما كاد أن يفعله بالخادمة المسكينة، وموقف الأم التي لم يهمها آنذاك إلا ستر ولدها ومعاقبة من تجرأ على الوقوف في وجه شهواته.

لم يكذبه الشيخ عمر، فها هو الباشا الصغير يريد أن يثأر لأخيه، وها هو ينتقم به ومنه في نفس الوقت، يدعوه ليقتل الشيخ عمر

صديق الضيق والكرب، ثم يقتله عطوة فيكون بذلك قد تخلص من منافسه في الانتخابات، وقضى على قاتل أخيه في آن وأحد، وضَمَنَ أن يغيب في القبر سره إلى الأبد، وابتسم وهو يتذكر حديث الشيخ على عن الشهادة في الحق وعن مصير الشهداء في الآخرة.

جاء يوم الاحتفال الكبير حيث دعا الباشا منافسه إلى منزله إظهارًا لحسن النوايا، والرغبة في الاتفاق على صالح الناخبين، أيًا كان شخص الفائز، التف رجال الباشا بالسرادق يطلقون الأعيرة في الهواء احتفالاً بالقادمين، وحتى يضيع صوت الرصاصات القاتلة، ربض هو مع عطوة على سطح غرفة الحارس بحيث يرقبا المشهد عن قرب، أخرج البندقية وطلب من عطوة أن يخرج مسدسه وكأنه يعطيه الأمان، تحدث معه في ألفة ثم أخذ مسدس عطوة وأعطاه بندقيته وكأنه يتأمل المسدس الجميل، اقتربت اللحظة الفاصلة فوقف الباشا إلى جوار الشيخ عمر ورفعا أيديهما بالتحية للناس، علت أصوات الطلقات في الهواء، وفجأة ضغط عبد الرحيم الزناد، خرجت طلقتان من المسدس إلى رأس عطوة، فهلك الخفير قبل أن يدرك ما حدث، نزع العتريس البندقية من تحت الجسد المسجي وصوبها نحو السرادق، وعندما انطلقت الأعيرة النارية ثانية تحيي المرشحين، انطلقت طلقتان من بندقيته إلى قلب ابن الباشا، سقط الباشا الصغير على الأرض فأحس الرجل بقلبه وقد اطمأن وخلا من الانفعال الذي سيطر على كل أعصابه لأيام خلت، قلّب جسد عطوة على البندقية في عجلة حتى صار في وضع التصويب، ووضع يده اليمنى على مقبضها وأصبعها على الزناد وكأنه الفاعل، لم يعش الباشا الصغير ليرى ترتيبه وخطته ينقلبان عليه وعلى عطوة..! ولحق بأخيه الأكبر ليذوقا جزاء ما قدمت أيديهما.

قفز العتريس من فوق غرفة الحارس وفي جيبه ألف جنيه ومسدس عطوة، وتوجه نحو الجبل حيث يعيش المطاريد، أمسى وقد أيقن أن

عليه الاختفاء على الأقل لبعض الوقت، تذكر دفء المنزل وحن للزوجة ولابنه الصغير، وتذكر المولود المنتظر فغامت عيناه بالدموع وهو يترك قريته وسط الهرج الذي ساد كل شيء، معلنًا مصرع الباشا الصغير على يد خفيره الذي قُتل بدوره على يد حراس الباشا، وتمنى لو كان الشيخ عليّ ما يزال على قيد الحياة حتى يسأله سؤالاً ألح على خاطره حتى حجب كل ما عداه من أحاسيس...!.

الحـــاج

(١)

كان خالد ـ وهو الابن الأوسط للحاج سالم ـ أكثر إخواته التصاقًا بأبيه وملازمةً له، وعقب وفاة زوجة الحاج التي أنجبت له ثلاثة أولاد كان هو أصغرهم بحوالي العام تقريبًا ترملت شقيقتها، وعادت إلى القرية بعد زيجة قصيرة انتهت بوفاة الزوج في حادث مفاجىء، قبل أن يرزقا بأطفال، وبدا للأب أن خالة أولاده هي أقرب ما تكون إلى أمهم الراحلة، وخير من يعوضهم عن فقدانها، فتزوج منها، وبعد أقل من عامين أنجب منها ابنته الأولى، وظل خالد بذلك محتفظا بلقب "الابن الأصغر"، وبعدها بعامين آخرين رزقا بابنتهما الثانية ليبقى هو بذلك أصغر الذكور في منزل أسرته.

ظل الطفل يصاحب أباه في الصلاة في المسجد، وعند حضوره مجلس الأسرة "بالمضيفة"، ولعل الحاج وجد في مصاحبة أصغر أولاده من زوجته الراحلة نوعًا من المودة التي ترضي أشقائه، وتقضي حاجة خاصة في نفسه، حيث أظهر بهذا للناس أن الزوجة الثانية لم تغير مكانة أولاده عنده، ولم تنقص من معزتهم شيئًا، ولعله أقنع نفسه قبل الجميع أنه إنما تزوج من أجل أولاده ولمصلحتهم لا لرغبة ـ لا سمح الله ـ في نفسه، أو هوى تملكه، وكانت هناك بعض الأقاويل التي زعمت أن الرجل إنما تزوج خالة أولاده بعد أن جرب حظه في خطبة غيرها من الحسناوات ولم يوفق.

أمّا فيما عدا هذا، فقد تأثرت تربية الحاج سالم لأولاده وبناته بنشأته الجافة وحياته الخشنة، والمشقة التي عانى منها في مطلع

شبابه، فضلاً عن بيئته الريفية، فكان حازمًا وأقرب إلى الشدة في معاملة أولاده الذكور، ولعل حبه وتدليله ورقته مع ابنتيه إنما سببهم أنهما ولدتا في فترة نَعِمَ الرجل فيها هو وأسرته بشيء من الرخاء المادي، والمكانة الخاصة بين أهل القرية، مما أتاح لهما أن يظفرا بالجانب اللين من نفسه، هذا فضلاً عن أنه كان يظن ـ مثله مثل سائر من نشأوا في القرية ـ أن تدليل البنات جائز في حدود، أمّا تدليل الرجال فمفسدة لهم بلا شك، ورغم أنه كان مجاملاً لأهل القرية، ولأقاربه وأصهاره، فضلاً عن عنايته بأمور إخوته وأبنائهم إلا أنه استطاع أن يفصل تمامًا بين حبه لأهله وبين واجباته ومعاملاته مع باقي الناس عمومًا، ولم يسمح لهذا الحب أن يجعله يومًا يتخذ موقفاً يعيبه، أو يجعله متحيزًا لهذا أو ذاك ممن يمتون له بصلة القربى، فحافظ بذلك على مكانته، واستطاع أن يكون حكمًا عادلاً يوثق برأيه، ويلجأ إليه البعيد قبل القريب.

ولاحظ خالد أن أباه لم يعط الفرصة لأمه، ولا لخالته من بعدها كي تتدللا عليه أو تُملي عليه إحداهما أمرًا في شئون حياته، إلا فيما يخص الأولاد والمنزل فحسب، أمّا حياته خارج المنزل بين أهل القرية وغيرهم، فكانت ملكًا خاصًا له وحده بلا منازع، وساد جلساته مع أصحابه طابع عملي لا يخلو من المغالاة في الاحترام، فلم يُسمح لأحد أن يتجاوز حدًا مرسومًا في التعامل أو الحديث، وفي القليل النادر كانت جلساته مع الحاج حسن يتخللها بعض الممازحات والتندر بأخبار القرية، تعوّد الحاج حسن أن يتهمه ـ مع الشيخ حسان ـ أنه ممن يشجعون الناس خفية على السخرية منه، وتناول سيرته بشيء من الاستهانة، ودأب الحاج سالم على أن يصمت باسمًا ولا يجيب، وكان لهذا الرجل الذي رافقه وشاركه في كفاحه من أجل إصلاح الأرض الزراعية التي اشترياها من الخواجة وسداد ثمنها، ثم في جني ثمار التعب والمعاناة عندما تحقق لهما ما سعيا من أجله، مكانة خاصة في

نفسه، فقد رافقه في سفره في رحلة الحج إلى الأراضي المقدسة، وتعوّد على مجالسته واحترام رأيه، وعندما كان يجتمع شملهما مع العمدة القديم والشيخ علي فإنهما كانا يجدان نفسيهما بحق، وكان الحاج حسن لا يكف عن الشكوى من أصحابه وعلى رأسهم الحاج سالم، مهددًا أنه لن يجعلهم يستد رجونه إلى إنفاق ماله فيما لا يقتنع به من أمور "الخدمة العامة" للقرية، مثل إصلاح المضيفة أو ترميم المسجد أو توسعته، وطالما اتهم الحاج سالم بالاستبداد، واتهم الباقين بممالئته، وهم يجبرونه على التبرع بالنقود، وكم أقسم أنه يدفع بذلك أكثر ممّا عليه من زكاة المال، ورغم ذلك فقد لاحظ خالد أن الرجل كان يحب أباه حقًا، وطالما سمعه يقول في غيابه وأثناء مرضه "أن جميع من تعامل الحاج معهم بما فيهم الخواجة "الياس" نفسه كانوا يعملون له حسابًا طوال عمره"... وطالما كرر له ولأخيه أن أهل القرية لو فعلوا جميعهم مثل الحاج سالم، وتفانوا مثله في العمل لتغيرت أحوال القرية، وعندما علم بموته فإنه لم يستطيع منع دموعه من الانهمار أمام الجميع، حتى أن أولاده أخذوا يواسونه ويدعونه للصبر والتجلد.

وحتى العمدة الجديد، وشقيق الحاج علي، وهما اللذان خلفا سلفيهما في "مجلس الكبار" فقد ظلا يُجلانه ويحترمان رأيه، حتى ولو اختلفا معه، فظل يُعد الرجل الأول في القرية طوال حياته، وبقيت ذكراه في أذهان الناس طويلاً بعد وفاته الأليمة في الغربة.

سمع خالد من أبيه الكثير من الحكايات عن أهل القرية، وعن أخبارهم في الماضي، كما عرف منه قصة حياته كلها، وظل مع ذلك حائرًا في فهم شخص الأب، فقد ظل هو وأصحابه هؤلاء، الذين يعدون على أصابع اليد الواحدة، يُعتبرون ضمير القرية، ورأيها الراجح، وسندها في الملمات، ويدها الكريمة الحانية، ومثلوا الجانب المضيء والوجه الحسن لتلك الأيام، وظل الحاج سالم حتى وفاته واسطة العقد، وحاكم القرية غير الرسمي، وكبير عائلتها بلا

منافس، حيث أفرد له أصحابه هذه المكانة فشغلها عن استحقاق، وكان ذلك في حد ذاته شيئًا غريبًا، فلم يكن الرجل أكبر أفراد الجماعة سنًا، ولا أعظمهم ثروةً، ولم يكن له عصبة أو جماعة مرهوبة الجانب تلتف به وتؤيده، ومن الغريب أن أصحابه رضوا بلا استثناء أن يكونوا حوله مستشارين له بلا حقد ولا ضغينة ولا حسد، بما فيهم العمدة نفسه.

كان خالد قد عرف أن جده الذي كان من خريجي الأزهر الشريف، لم يملك إلا خمسة وعشرين فدانًا من الأرض الزراعية معظمها مرهون للخواجة "الياس مهنى"، وبينما باع بعض أقاربه أرضهم كلها فعلاً للخواجة، وباع البعض الآخر جانبًا من الأرض لسداد الدين، فإن أباه قام بالجزء الأكبر من العمل والسعي في فلاحة الأرض، حتى فك رهنها، واضطر من أجل ذلك إلى قطع تعليمه في المرحلة الثانوية، ثم دفع إخوته إلى مشاركته في مغامرته الكبرى مع الحاج حسن والشيخ حسان، حين عرض الخواجة أرضه للبيع، وطمح الحاج إلى أن يزيد نصيبه من الأرض إلى الضعف، ولكن القدر كتب له أن يعاني من جراء إصراره على إشراك إخوته معه، إذ تخلوا عنه في الأوقات العصيبة، ورغم أن الحاج نجح في النهاية فيما ظنوه لن يقدر عليه، ورغم أن الله أعطاه من أرض الخواجة نصيبهم فوق نصيبه، إلا أن صحته وراحته كانتا هما الثمن الفادح الذي تعيّن عليه أن يدفعه في نهاية المطاف، ولم تخلُ حياته قط من المعاناة والإجهاد حتى آخرها، عُرف الحاج - الذي لم يكن أكبر إخوته سنًا - بأنه أكثرهم حلمًا وصبرًا على الأيام الصعبة، وبأنه لم يترك للظروف أن تنال من كبريائه أو كرامته قط، فكان يُظهر السخاء في أيام الضيق، والبشاشة والمودة في أيام الكرب والشدة، وعُرف عنه الترفع عن الصغائر، والتغاضي عن الحماقات، وظل أصدقائه ومعارفه يعدونه كبير عائلته، وممثل قريته ورأسها المدبر، حتى أن أباه نفسه عهد إليه

بكل أمور الأسرة، فضحى في سبيل ذلك براحته، وقسا على نفسه حتى يقوم بكل ما وُكِّل إليه بجدارة، تحمّل نزوات إخوته وخلافاتهم مع بعضهم ومعه هو نفسه، وتأخر زواجه حتى تزوج معظمهم، وظل التزامه بهم قائمًا بعد أن ترك المنزل، رغم أن هذا كان في حد ذاته سببًا في أن رفضته أكثر من فتاة في مطلع شبابه بلا تردد، والغريب أن معظمهن تزوجن فيما بعد بمن هم أقل منه همةً وطموحًا في المكانة والثراء، إلا أنه كان يشعر بغصة وهو يحكي لأولاده عمن رفضنه أيام الفقر والشقاء، وأَبَيْن أن يشاركنه حياة الشظف والخشونة، إلا امرأته الأولى التي عوضه الله بها عن كل من رغب فيهن قبلها، وكانت ـ للعجب ـ لا تقل مالاً ولا جمالاً عن أي منهن، كما وأن أبها كان هو الذي أُعجب بصلابة الحاج وأخلاقه، فخطبه لابنته بلا تردد، وعندما عاتبته زوجته بأنه لم يترك للفتاة ما تتدلل به على زوجها، وهم الذين سعوا إلى مصاهرته قال لها: "لقد صاهرت رجلاً أصيلاً لعل الله يطيل حياتنا حتى ترين صدق حدسي فيه".

عندما عاد الشيخ علي من الأزهر وأقام يعلم الأولاد في كتاب القرية، فإنه أبى، وهو الذي كان قد نشأ في أسرة ميسورة، أن يتقاضى أجرًا عن ذلك، وعندما علم الحاج سالم أنه في ضيق بسبب أن أباه كان ممن باعوا أرضهم للخواجة، فإنه عرض عليه أن يؤجره بضعة أفدنة من أرضه، ولما لمس تردده وحياءه، عرض عليه أن يقرضه بعض المال لينفقه على الأرض وفلاحتها، وفهم الشيخ أنه إنما أراد مساعدته، فطلب مهلة للتفكير، وتلطف الحاج حتى أقنعه، فلم يجد حرجًا في القبول، وظلت هذه الأرض مورده الرئيسي حتى خلا منصب المأذون، فسعى له صديقه حتى يتولاه، ممّا يسَّر له دخلاً جيدًا يغنيه وأسرته، وكانت زوجة الشيخ قريبة للحاج، فحضرت مع زوجها لشكره على تعبه، وتصديه لأحد أبناء عمه الذي طمع في المنصب، فقال لهما: "إنه من حق الشيخ الذي علم أولادنا بلا أجر لسنوات طويلة

أن يجد عملاً يغنيه عن البحث عن مورد يليق به وأسرته"... وتحسنت حالة المأذون وأسرته بعدئذ حتى اشترى أرض الحاج المستأجرة فصارت ملكًا خالصًا له.

وعندما مات الشيخ بعدها بسنوات، فإن الحاج سعى كي يحل شقيقه محله، بعد أن أخذ عليه العهد برعاية أرملة أخيه وابنها اليتيم، وكان الشيخ علي قد اشترى الأرض التي استأجرها من الحاج في فترة احتاج فيها الأخير إلى بيعها بمبلغ ساعده أن يسدد جزءًا من ثمن الأرض الجديدة التي اشتراها من الخواجة.

كان من معارفه وزملاء دراسته زوج خالة الدكتور مختار ابن حلاق القرية، الذي كان موظفًا في الشهر العقاري في عاصمة الإقليم، وعندما علم منه بالضيق الذي تعاني منه أسرة الحلاق خاصة بعد وفاة زوجته، فإنه لم يتردد في مساعدتهم، وكان هو الذي شجع الرجل على تبني مختار أكبر أولاد الحلاق الذي طالما رغب في إتمام تعليمه، وكان على خلاف دائم مع أبيه، وعندما حضر مختار إلى منزله ليشكره، فإنه طلب منه وعدًا بأن يسلك مع خالته وزوجها سلوكًا أفضل ممّا سلك مع أبيه، ورغم ما أبداه الفتى بعد ذلك من الجحود والنكران والتباعد عن أبيه وإخوته، فإن الحاج لم يندم على صنيعه قط، وإن لم يُخف عجبه من أن يوافق شقيق الشيخ "علي"، على أن يزوجه ابنته التي يعلم أهل القرية تعلقها بابن عمها مدرس الموسيقى الذي رفضه الأب بإصرار، وعندما عاد ابن الحلاق منهارًا في النهاية يبحث عن السكينة في قريته، رفض أبو زوجته أن يعيدها إليه، لولا أن ابن الحاج استدعاه وضغط عليه حتى قبل أن تعود ابنته إلى زوجها ليلتئم شمل الأسرة وتعيش حفيدتيه بين أبيهما وأمهما، ولم يفكر الحاج أثناء مرضه في الاستعانة بالدكتور مختار الذي كان آنذاك يعيش في العاصمة، ممّا عده الآخر استعلاء وتعاليًا فرفض زيارته رغم إلحاح خالته.

حرص الرجل أن يكون حاضرًا مع الشيخ حسان، الذي كان هو الآخر رفيقه في مغامرة شراء أرض الخواجة، وذلك عندما اتفق مع إخوته وزوجة أبيه على الصلح، وبعدها اتفق مع الشيخ على شراء نصيب أرملة الأب التي توفي ابنها، وعندما ظهرت بوادر الخلاف بين زوجة الشيخ وأرملة شقيقه الراحل الشيخ حسين التي حضرت مع أولادها فجأة للإقامة في القرية، سعى مع العمدة حتى تم الصلح وأُعيد للأرملة وأولادها حقهم، وغاب الحاج بسبب مرضه عن حضور نهاية القصة، ففاته حصار المطاريد للقرية ، لكن ابنه خالد حضر ذلك اليوم، وكان له فيه شأن بارز أثّر على علاقته بأبيه فيما بعد إلى حد كبير.

أحس خالد نوعًا ما أن أباه يثق في الحاج حسن، ويستلطف صحبته أكثر من الشيخ حسان، الذي كان لا يرضى عن ميله أحيانًا للجور على إخوته، وحبه للاستئثار بالأرض والعقارات الذي تملك نفسه في كثير من المواقف، ولم يكن شعوره فيما يبدو خافيًا عن الشيخ، وإن لم يؤدي إلى قطع أسباب الصداقة بينهما حتى النهاية، وظلا قادرين على الاحتفاظ بالود رغم الاختلاف في الرأي والمشارب.

أمّا عبد الرحيم العتريس الذي لم يكن الحاج يحبه، ولم يكن في نظره ـ كما قال لابنه ذات يوم ـ سوى أحد خدم الباشا الذي تحول من سرقة الحمير إلى القتل بالأجر، فإن ذلك لم يمنعه من أن يؤيد الشيخ عمر في وجهة نظره في أنّ ما دفع الرجل إلى الإجرام هو الفقر والظلم، وقال لخالد يومًا أن العتريس إنما أراد أن يحس أنه ممن لهم وزن وجانب مرهوب، وأنه وجد أنّ تحقيق ذلك لا يكون ـ في حدود تفكيره ـ إلا عندما يستعين به الباشوات الذين طالما ساموه الخسف، ويطلبون خدماته في التخلص من أعدائهم، كان الحاج موقنًا أن الرجل هو قاتل ابن أخى الباشا الكبير، وكذلك منافس الباشا في الانتخابات، وبرغم ذلك فقد أقرضه المال ـ عندما نوى أن يستقر في

القرية ـ ليشتري العجول التي كان يذبحها كل أسبوع، وليدفع ثمن البضائع التي اشتراها لدكانه، كما أنه رعى زوجته وابنه أثناء غيابه، وعندما تشاجر الشيخ عمر مع العتريس، فإنه اعترف للحاج في إحدى جلساتهما أنه يحس بالذنب تجاهه حيث كان قاسيًا ولم يطق معه صبرًا، وقتل الباشا الصغير الذي لم يحزن عليه أحد قط، فأحس الشيخ أنه ربما يكون قد دفع الرجل بطرف خفي لهذا التصرف، ولم يثبت على العتريس شيء، فعاد للحياة في القرية وكأن شيئًا لم يحدث، وتردد على منزل الحاج حتى قبل أن يتوسط بينه وبين الشيخ عمر، وطالما أبدى امتنانه لرعايته لأسرته في غيابه، وأصر على سداد دينه له، كما دعاه لحضور عرس شقيقة زوجته التي كانت تعمل في منزل الحاج ذات يوم.

لم يبق من ذكريات أشخاص الزمن الخالي، والذي يبدو جميلاً كما تعود الماضى أن يبدو دائمًا، إلا ذكرى من ألف خالد أن يقابلهم من أصدقاء إخوته، مثل عادل ابن الشيخ علي بملامحه الدقيقة وهو يزور أخاه الأكبر في منزلهم القائم على شاطىء الترعة الجديدة، أيام كان طالبًا في المدرسة الثانوية، وذكرى مشادة بينه وبين ابن الحلاق الذي عرّض بوالد عادل الراحل ساخرًا من الأشعار القدرية التي طالما علمها لهم ناسبًا إياها إلى الإمام عليّ والإمام الشافعي، ويومها زجره أخوه الأكبر طالبًا منه احترام ذكرى أستاذه، وألا ينسى فضله، بينما ظل خالد صامتًا يُراقب ولا ينبس، ثم بعدها بسنوات عندما حضر عادل لزيارة أبيه في مرضه، فتهامست أختاه أنه مطرب مشهور جدًا في العاصمة الكبرى، وأن له من المعجبات أضعاف ماله من المعجبين، وعلى العكس من ذلك عاد الدكتور مختار ابن الحلاق إلى القرية مهزومًا مُحطمًا، وقال له أخوه الأكبر مداعبًا: "ألا يذكرك هذا الطبيب بحصانك المتمرد الذي آذى نفسه بثورته على قدره، ولم

يفز في النهاية بشيء سوى أن تهاوت أحلامه وتم التخلص منه بلا تردد أو ندم؟.

كان الحاج سالم حريصًا على علاقاته مع رجال السلطة والمسئولين في المركز، وفي عاصمة الإقليم، فوطدها بمأمور المركز ومهندس الري والعاملين في الشهر العقاري وفي الضرائب العقارية، واستعان في ذلك بأقاربه وأولاد عمومته ممن كانت لهم مراكز مرموقة في العاصمة الكبرى، وعُرف عنه أنه لم يوظف هذه العلاقات لنفعه الخاص فقط، وإنما استخدمها أيضًا لصالح أهل القرية جميعًا، وكانت هذه العلاقات تعزز مكانته في القرية بلا شك.

أمّا علاقته بالباشا الكبير فطالما ظلت ذات طابع رسمي جاف، وإن كان الرجل حريصًا على ألا يقطع شعرة معاوية بينه وبين الباشا ورجاله، وألا يتورط في مواجهة قد لا تثمر إلا الخسارة له وللقرية التي كان بها من المشاكل ما يكفيها، وساعده في ذلك أن الباشا عرف له مكانته في القرية، ووضع محبة أهلها له في الحسبان في سائر معاملاتهما، ممّا جعل الحاج قادرًا على الضغط عليه خاصة أثناء الانتخابات لتحقيق بعض الأحلام التي طالما طمحت قريته إليها، مثل شق الترعة الجديدة، وتطهير المصارف، فضلاً عن بعض الأمور الشخصية، مثل توظيف هذا أو نقل ذاك من أولاد القرويين، على أنه لم يحب ابن الباشا الأصغر، ورآه غير جدير بالاحترام، وكان قد نُسب إلى الباشا الصغير أنه منَّ على الحاج بأنَّ شق الترعة الجديدة أنقذه من الإفلاس، ومن بيع ما بقى من أرضه التي ورثها لسداد ديونه للخواجة، وذلك حين أدى - مع تطهير المصارف - إلى تحسين تربة الأرض التي اشتراها، وتسهيل زراعتها، وزاد من خصوبتها، وقال أنه لولا حرص الباشا والده على صالح أهل القرية لما تم شيء من هذا، وأنهم قابلوا الجميل بالنكران وتشجيع مزارعيه على شق عصا الطاعة، ولم يُكلّف الحاج نفسه عناء التعليق على هذه المزاعم حيث

كان شعوره تجاه الفتى الفاسد المغرور معروفًا للجميع، ولا ينسى خالد أنه سمع الحاج وهو يزجر العمدة الجديد بصورة بدت قاسية وغير مألوفة - إذ كان يعلم حب أبيه له - بسبب ما سمعه عن صداقته لابن الباشا الأصغر مما أحزنه، وجعله يطالبه في لهجة آمرة ألا يربط اسمه باسم ذلك الفتى الفاسد أو زوجته، ولم يفهم خالد سبب هذه الواقعة، ولا هذا الموقف المتشدد آنذاك، وطالما سمع أباه يقول بعدها في أسى "لقد خاب ظني في رجال الثورة عندما علمت أن هذا المهرج وجد مكانًا بينهم".

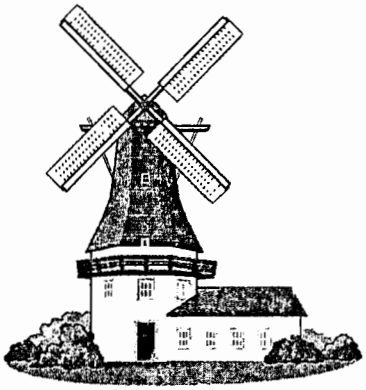

(٢)

سعد خالد بمكانة أبيه وحب الناس له في طفولته، ولكنه فوجىء في شبابه بأن هذه المكانة وهذا الحب قد جعلا الناس لا يرون من حوله إلا كظلال له، وقاسى هو نفسه من هذا الشعور عندما قام بذلك العمل الذي عدّه الناس بطوليًا يضاهي ما قام به ابن الشيخ حسين في تلك الليلة التي حاصر المطاريد فيها قريتهم، فبينما ظفر ابن الشيخ بالثناء والمديح، سواء بين أهل القرية أو وسط أهله وأسرته، إذا بدور خالد ينزوي ويتضاءل فلا يرى الناس فيما فعله إلا أنه أثبت أنه فعلاً "ابن أبيه"، وأن حكمة الحاج وحزمه في تربية أولاده قد أثمرا آخر الأمر في ألْصق أبنائه به وأقربهم إلى نفسه، وشمل الثناء حُسن أدب إخوته وعلو أخلاقهم، أمّا هو فلم يخصه أحد بشيء يوازي جهده وجرأته من هذا المديح كله، لم يكن هذا الشعور واضحًا تجاه الأب في البداية، ولكنه اختمر وتبلور بعد أن أوشك خالد على التخرج من كلية الطب حين راح يتسائل: "هل هناك إنسان كامل؟". "وما هي نقاط ضعف الأب"؟.. ولم تسعفه الأيام كي ينظر إلى أبيه من هذه الزاوية أو بهذا المنظار، إذ تدهورت صحة الأب فجأة مما اضطره إلى أن يحد من نشاطه، ثم إلى أن يترك قريته في أواخر الخمسينيات مع خالد وابنتيه وزوجته متجهًا إلى العاصمة الكبرى، وهناك أقاموا فتحولت غيرته الوليدة من أبيه إلى إشفاق على الرجل المريض الذي اضطر إلى الخروج من قريته، وترك أصدقائه وأصحابه ومعظم أهله. ومما ضاعف من ثقل هذه المرحلة وإحساس الأب بالغربة فيها أنه أحس أن رفاق الماضي قد انشغل معظمهم بحاله، وأحاطت به الدنيا بهمومها ومكدراتها، فلم يكد ينعم بثمار عمله وكده حتى انشغل بزيارة الأطباء وآلام المرض، وحساب مواعيد الدواء، والقلق والخوف من المستقبل، وما قد يحدث لأسرته ـ خاصة ابنتيه الصغيرتين ـ إذا ما حدث له مكروه.

دأب الشيخ حسان والحاج حسن على زيارة الحاج سالم في العاصمة أثناء المرض، فعرف خالد عن تاريخ أبيه كثيرًا مما كان يجهله، وفهم سر حب الناس واحترامهم له، فقد استطاع أن يكون واحدًا من أهل القرية لا يتميز عنهم بشيء، وظل في نفس الوقت مثلهم الأعلى في الكفاح والاجتهاد، فقد رأوه يقود رفيقيه لشراء أرض الخواجة "الياس" عندما عرضها للبيع، وكانت الأرض برغم رخص ثمنها، صعبة الفلاحة بسبب طول الإهمال وصعوبة الري والصرف، ودأب الحاج حسن على الإشادة ببراعة الرجل في حل مشاكل الأرض وتحسين تربتها، والتسليم له بالخبرة والمقدرة كفلاح وكرجل أعمال بالفطرة، وأشاد الشيخ حسان بقدرته على مواجهة تلهف الخواجة على سداد الصكوك في موعدها، حين دبر النقود بالاقتراض من معارفه وبيع جزء من أرضه القديمة دون أن يثقل على أحد.

ولم يسعد الإثنان بإصرار الحاج سالم وتمسكه بإشراك إخوته معه في شراء الأرض الجديدة، وتوقعا الكثير من المشاكل التي تحققت فعلاً وبسرعة، فقد انسحب الإخوة واحدًا تلو الآخر تاركين الحاج سالم مع أخيه الأصغر يواجهان مشاكل تدبير مصاريف إصلاح التربة، وتحسين الري وتطهير مصاريف الأرض الجديدة التي زاد نصيب كل منهما منها، مما جعل سداد ثمنها للخواجة شبه مستحيل، بعد أن تخلى إخوتهما عنهما، و عن الفكرة الطموحة لزيادة رقعة ما يملكونه من الأرض الزراعية.

ويقول الشيخ حسان أن الحاج سالم الذي كان أقواهم عزيمةً وأشدهم إصرارًا وأحسنهم صحةً وعافية قد نال منه الهم والقلق في تلك الأيام التي اضطر فيها لبيع معظم نصيبه من أرض أبيه لسداد صكوك الخواجة في موعدها، ويضحك الحاج حسن وهو يقسم أنه لولا أن الباشا أوفى - على غير عادته - بوعده وفاجأ الناس في القرية

بشق الترعة الجديدة، وتطهير المصارف حتى أصبحت فلاحة الأرض سهلة لانهارت الأحلام الجميلة ولتحولت إلى كابوس رهيب.

كانت الأرض الجديدة سببًا في أن تدهورت صحة الحاج، وأن يعرف القلق والهم طريقهما إليه، ولم يشعر إخوته بالذنب إلا فترة وجيزة راحوا بعدها يغبطونه حيث فاز دونهم بالأرض الواسعة التي جعلتها الترعة والمصارف الجديدة جنة الله على أرض قريتهم، وأصبح الحاج بذلك وقد منحه الله المال والبنين، ونسوا أن شق الترعة قد حمل الخير لأرضهم التي ورثوها عن أبيهم، وأن أحدًا منهم لم يُحرم نعمة الإنجاب، كما وأنهم اختاروا حياه الدعة والراحة على التعب والمعاناة والمخاطرة بما ورثوه - دون جهد - عن أبيهم.

أصبح الرجل لا يرجع إلا في الصيف إلى قريته ليقضي شهورً يعرف فيها أخبار القرية، ويتذكر مع أصحابه قصص الماضي، ويرعى شئون أرضه، ولا يلبث أن يعود على إثره إلى منفاه الاختياري في المدينة، حيث صارت أخبار القرية ترد له عن طريق الهاتف إذا كانت عاجلة، وعن طريق عواده إن كانت غير ذلك، وفي هذه الأيام عرف الأب بموت الباشا الكبير فترحم عليه داعيًا الله أن يحاسبه بعدله، وآكد أن ابنه كان يمثل عذابه وغضب الله سبحانه وتعالى الذي سلطه على الرجل في الدنيا.

وكان المرض وتغير وجه الحياة في القرية قد تركا أثرهما الحاد على نفسه، وربما أحس أن دوره قد تضاءل، وأن هناك وجوهًا جديدة قد أخذت تقوم بجزء غير هين من هذا الدور بصورة أو بأخرى.

وحدث أن تشاجر عمّه الأصغر مع باقي أعمامه في القرية، وعلم الحاج أن بعضهم اتهم أخاه الأصغر بأنه سعى معه للاستئثار بالأرض الجديدة لأنفسهما، فتملكه الحزن والدهشة معًا، وعجب أن يصدر هذا القول عنهم، وتساءل: "من الذي ترك المعركة وهي في أشدها،

وبدلاً من أن يساعدنا لتحقيق هدفنا المشترك، هرب عند أول اختبار حقيقي؟... ألم يذهب كل واحد منهم في ناحية؟!..، ولولا لطف المولى لحاقت بنا كارثة"... ثم أضاف وكأنه يحدث نفسه: "وها أنذا لا أجني سوى الحسد الأحمق في نهاية الأمر".

وأثرت هذه الحادثة على صحته فأصيب بذبحة صدرية شديدة ألزمته الفراش طويلاً قبل أن يفيق منها، ورغم استيائه وما عاناه في مرضه، فإنه عاتب أخاه الأصغر وشريكه في الأرض الجديدة، وطلب منه تجنب الخلاف مع باقي إخوتهما خاصة أمام الناس، وتجنب بدوره الحديث في هذا الأمر مع إخوته عندما عادوه في مرضه.

وسط تتابع الأحداث التي لم يكن كثيرٌ منها سارًا ولا بهيجًا، وجد خالد نفسه وقد فُتحت أمامه أبواب خفية لمعرفة جوانب مما أُثير حول أبيه لم يكن يظن أنه سيلجها، أو أنها موجودة من الأساس، ورغم أن هذه الجوانب لم تكن سوى أحاديث تناولتها ألسنة البعض، ورغم أن من هدى خطاه إليها كان شخصًا لا يمكن أن يعتبر حديثه فوق الشك والشبهات، إلا أنه وجد لها صدى في نفسه، وظل أثرها في وجدانه ردحًا طويلاً خاصة وأنه حبسها في نفسه ولم يجد من المناسب أن يبوح بها لأحد إخوته أو أصدقائه، فقد حالت طبيعتها ومصدرها مع طباعه الريفية المتحفظة دون أن يجدها مادة صالحة كي تصبح موضوعًا يمكن أن يثار مع أحد منهم.

كان مصدر هذه المعلومات الجديدة هي الخادم التي تعودت أن تساعد خالته ـ زوجة أبيه ـ في القيام بشئون المنزل في أجازات الصيف التي كانت الأسرة تقضيها في القرية، ولم يكن أحد يحس بوجودها طيلة الفترة التي كانت الخالة موجودة فيها مع أختيه الصغيرتين، حين اقتصر دورها على مجرد المساعدة، وكانت زوجة الأب تحب القيام بمعظم العمل بنفسها، فلم يبق لها من اختصاص سوى اقتضاء بعض الأشياء من خارج المنزل، وبعض الأعمال البسيطة لمساعدة الخالة

وابنتيها، لكنها كانت تجد دورًا أكبر نسبيًا عندما تسافر الخالة والأختان إلى القاهرة تاركات الفتى ووالده وحدهما لأسبوعين أو ثلاثة، حتى يحين موعد بداية الدراسة في كليته، والذي كان يتأخر عنه في مدارس الأختين، أمّا إخوته الكبار فقد استقر بهم الحال في القاهرة وفي عاصمة المحافظة.

بدت الخادم حينئذٍ أكثر جرأة وثقة، وأضحت أقدر على رفع الكلفة بينها وبينه في هذه الأوقات، متخذةً من تعودها على أفراد الأسرة، وتعودهم عليها وما عرفته من طباع خالد، سبيلاً يجعلها قادرة على اكتساب رضا الفتى، الذي شعر بالملل أحيانًا لانشغال والده الدائم عنه بأمور الأرض، وجلسات الأصدقاء، وأحوال القرويين.

فضلاً عن الفارق الاجتماعي، وطبع خالد الحذر، وكونه أكبر من الفتاة بحوالى أربعة أعوام، فإن ضآلة القسط الذي تلقته من التعليم جعل الهوة بين الإثنين واسعة، لولا أن مكرها الفطري، وخبرتها المختلفة في الحياة، ودرايتها بما يُقال عن الرجال بين النساء، جعلوها تملك معينًا لا ينضب من القصص التي يمكن أن تثير فضوله، فسلكت طريقة مميزة في سرد الأقاصيص عمّا دار بين الرجال والنساء في القرية، وشجعها ما وجدته من تتبع الفتى لقصصها رغم عدم اهتمامه واستخفافه الظاهريين، فأخذت تبوح بما تعلمته من خلال منطلق فريد يرى أنه لا عيب في العلاقة التي تقوم بين الرجل والمرأة بدافع من الرغبة المتبادلة والرضا، طالما أنها خلت من شبهة الإجبار أو القسر، ولم تكن تُمارَس بدافع الطمع أو المنفعة، وأن ليس لأحد أن يلوم في هذه الحالة أي من طرفيها، واندفعت ذات يوم تروي له ما يُقال عن علاقة أبيه القديمة ببعض نساء القرية، ولم يفتها استنكاره، فقبل أن ينبس وجدها تسارع لتدافع عن صحة هذه الأقوال، واستطردت مؤكدة أنها لا تنتقص من قدر الحاج بل تؤكد رجولته وفحولته وجسارته، ممّا جعل الكثيرات من النساء يعتبرنه

رمزًا لما ينبغي أن يكون عليه الرجل، ولم تخجل أن تذكر اسم خالتها هي نفسها بين من نلن هذه الحظوة يومًا ما، وأن الحاج لم يلجأ إلى هذه العلاقات إلا أثناء مرض الحاجة زوجته الأولى والدة خالد وبعد وفاتها، واستمرت فقط حتى ختمها الأب قبيل زواجه الثاني، ولم يفتها أن تذكر في ثقة ما قيل عن حب زوجة الباشا الكبير الأولى له قبل زواجها، وأن أحدًا في القرية لا يستطيع - برغم ذلك - الجزم بمدى العلاقة بينهما آنذاك.

قلل من مصداقية هذه الحكايات وبالتالي من وقعها على نفسه، علمه أن الفتاة أنما كانت ترمى من ورائها إلى تخطي الحواجز التي أحست بها تفصلها عنه، وإغوائه إلى ما ظن أنه تسعى إليه طوال الوقت، لكنه لاحظ في نفس الوقت أن كلامها قد فسَّر له دون قصد بعض ما كان قد سمعه من قبل ولم يفطن لمعناه من تلميحات وإشارات بدت غامضة في حينها، عندما مازحه بعض أصدقائه من القرويين سائلين عمّا إذا كان هناك شيء ما بينه وبين الفتاة، وأضاف أحدهم ذات مرة أنه يجب أن يثبت أنه "سر أبيه فعلا"!!، بالإضافة إلى ذلك فإنه لاحظ أن كل من ذكرت الفتاة أسماءهن من النساء عملن لديهم في الفترة التي سبقت وفاة أمه حتى زواج أبيه الثاني، ولم يهتم بما ذكرته عن بعض رجال القرية الذين سلكوا سبيلاً مشابهًا، أو لاحقتهم شائعات مماثلة كتبرير لمسلك الأب الذي كان يُمثل له البطل والقدوة، ويعتبر شخصيته - رغمًا عنه - مثلاً أعلى يتحدى قدراته.

كانت أخت الفتاة الكبرى تعمل عند الباشا في فيلته، ولم تلبث أن لحقت هي الأخرى بها بعد أن تركت منزلهم، فعملت معها لعدة سنوات، حيث كان العمل هناك متواصلاً طوال العام، ولعله كان مُجزيًا بصورة أغرتها بالبقاء هناك، وانقطعت أخبارها عنهم فلم يرها خالد إلا عندما سمع بزواج عبد الرحيم العتريس من أختها الكبرى، وطلب منه أبوه أن يذهب لمنزله ليوصِّل مبلغًا من المال كان قد طلب

منه إقراضه إياه، وتصادف أن كانت هي التي قدمت له الشاي، فلاحظ ما طرأ عليها من تغير، إذ فقدت رشاقتها وتلقائيتها، ورغم أن النضارة وجدت طريقها إلى وجهها، إلا أن تغير ملامحها، وامتلاء جسمها، وإحساسها المبالغ فيه بأنوثتها، أضفوا شيئًا من التكلف على شخصيتها، بدا غير متجانس مع صورتها القديمة في ذهنه، ولم يطل مكوثه عند زوج أختها فقد استأذن بسرعة فوقفوا يودعونه ويسألونه أن يحمل إلى الحاج سلامهم ودعواتهم بسرعة الشفاء، وقامت لتصافحه وعندما تلاقت أعينهما ابتسمت له ابتسامة ذات مغزى، فأدرك أنها لم تفقد اندفاعها وجسارتها، وتذكر رغمًا عنه محاولاتها للتقرب منه حين كانت تختلي به في منزلهم، ولم يرها إلا بعد أن اختفى زوج أختها لعدة أسابيع قبيل مولد ابنه الثانى، فقد أرسله أبوه ببعض المال من حين لآخر لزوجة العتريس، فكان يقابلها هناك للحظات قصيرة مع أختها، وتعوَّد آنذاك هيئتها الجديدة حتى كاد أن ينسى ما كانت عليه سابقاً، وبعد مقتل الباشا الصغير بفترة قصيرة، وبعد أن حُفظ التحقيق، عاد العتريس إلى القرية، وحضر إلى منزلهم لشكر أبيه على إحسانه لأهله في غيبته، ودعاه يومها إلى حفل زواج أخت زوجته، وبدلاً من أن يقترض مبلغًا آخر من المال كما توقعوا أصر على تسديد كل ما كان مدينًا به للحاج، وعلم خالد أن الفتاة سافرت مع زوجها الذي كان يعمل في المدينة، فلم تكن تزور القرية بعد ذلك إلا نادرًا، لكنه ظل يذكر حكاياتها عن رجال القرية ونسائها، وتلك الظلال التي أضفتها على صورة أبيه، فظلت تراوده ذكراها كلما خطرت ذكرى حياته في القرية آنذاك على باله، أو مرَّ على خياله طيفها، فتختلط الحيرة في ذهنه بشيء من الشجن والحنين.

حلَّت القوانين الاشتراكية على البلاد فأثرت في النفوس أكثر من تأثيرها في الأشياء، وصارت العلاقات الطيبة والمحبة أثرًا بعد عين،

ورغم أن الحاج وأولاده لم يخسروا شيئًا من أرضهم، إلا أن ما طرأ على وجدان الناس أثّر سلبًا على العلاقات في القرية، ولمس الحاج ضيق أولاده وتبرمهم بالأوضاع المتردية في قريتهم، ولاحظ أن معظم أولاد عمومتهم قد هجروا القرية واحدًا تلو الآخر، وكأنما كانت النهاية تبدو مسطورة بالفعل أمام الرجل وهو يحزم حقائبه عائدًا إلى العاصمة عقب إحدى الزيارات التي قضاها في قريته، فقال لأولاده منتهزًا فرصة اجتماعهم: "إنني أحس بخطر قادم"... وأضاف في إصرار: "لاتتعجلوا بيع أرضكم فلم أر أحدا يفعلها إلا وقد ندم في النهاية"..، وكان القلق والانفعال قد تملكاه حتى أنهم أكدوا له أنهم لن يفعلوا إلا ما يعرفون أنه يرضيه.

توفي عادل ابن الشيخ علي فجأة بعد وفاة عمه بقليل، وكان الحاج في القرية، فحضر العزاء مع العمدة مرتين في نفس المنزل، وكان تأثره بالغًا وأعمق ممّا توقع خالد، ثم مات الشيخ حسان بعدهما بشهور فأصر على العودة إلى القرية لحضور المأتم، وبدا عليه أنه قد نوى أمرًا برغم الإنهاك والإعياء اللذين تملكاه، فاستدعى ابنه الأكبر وكان مُهندسًا زراعيًا في عاصمة الإقليم بعد العزاء بأيام، وعهد إليه أمام إخوته برعاية شئون الأرض.

اشتد المرض على الحاج وتملكه شعور بأن الزمن الجيد قد ولى إلى الأبد، فقضى في القرية أيامًا حتى ظن أنه تحسن، ثم غادرها إلى العاصمة، وهناك توجه إلى أحد الأطباء الكبار الذين ذاعت شهرتهم في ذلك الوقت، وفوجئ الفتى بالطبيب ينصحه بالسفر إلى لندن دون تأخير، توجس خالد خيفة لكنه لم يجد مفرًا من أن يُعد نفسه للسفر معه، ووعدهما أخوه الأكبر باللحاق بهما حالما ينهي بعض المشاكل المتعلقة بأرضهم في القرية، وحضر أصدقاء أبيه لوداعه، ولاحظ الحاج حسن عبوسه وتجهمه، فدعاه إلى الاتكال على الله، وذكّره أن

أولاده مازالوا يحتاجونه، أمّا العمدة فكان واجماً مأخوذًا، وجاء وداعهما للحاج حارًا وحزينًا طفرت فيه الدموع برغمهما.

كذلك حضر أعمامه وعماته، كما أنّ الشيخ عمر زاره بعد نجاحه في الانتخابات، فأخبره أنه وجد مجلس البرلمان يفتقر إلى الحرية التي كانت للبرلمانات السابقة، ولم يكن الحاج في حال تسمح له بخوض مثل هذه الأحاديث، وتحسّر خالد نفسه على الأيام التي كان أبوه يصول ويجول فيها في مثل هذه الأمور.

سافر خالد مع والده، وحضر إخوته وأعمامه لوداعه، وقضى أكثر من شهر بين الفحص والأبحاث والأدوية، ثم لحق الأخ الأكبر بهما متأخرًا عن موعده وهو في غاية من التشاؤم، وخاف خالد أن يظهر على وجهه أمام أبيه ما لمسه من قلقه والتياعه، فاصطحبه إلى مكان سكنهم، وأخذ يهدئ من روعه، فإذا به ينفجر في حزن طاغ قائلا: "كيف لا أحزن على من كان مثله؟.. إنني لا أصدق أن هذه هي النهاية"... وعاد خالد يحاول تسكين انفعاله بلا جدوى، فقد أخذ يشكو من المشاكل التي يلاقيها من أقاربهم في القرية، وعلى رأسهم عمه الصغير بعد أن نسى الجميع أفضال أبيه المريض عليهم.

مات الأب في الغربة بعد أن قضى خالد وأخوه قرابة الشهرين ملأً فيهما من سماع الأخبار السيئة من الأطباء الإنجليز بلغتهم المهذبة الباردة، وتفسيراتهم الممضة المملة، وبرغم أنهما تمنّيا أن يطول هذا العذاب، على أن ينتهي بشفاء الوالد المريض المستسلم لقضاء الله، إلا أن الفتى عاد في نهاية الشهر مع أخيه ومعهما جثمان أبيهما على طائرة حملتهم قافلين إلى مطار العاصمة الكبرى حيث كانت الأسرة في انتظارهم.

حلَّ التعب على خالد فغلبه النوم في السيارة التي أقلتهم إلى القرية، فإذا به يرى حصانه القديم في المنام كما تعود أن يراه في الماضي،

ورأى أباه للحظة قصيرة وهو يبتسم في ثقة وسعادة، قبل أن يمضى قويًا مبتسمًا رافع الرأس كحاله في الزمن الخالى، ثم أفاق على صوت أخيه وهو يوقظه في رفق أثناء دخولهم القرية.

تسابق الناس في حمل النعش إلى المقر الأخير، وسار خالد مع أخيه في مقدمة الجنازة، خطر له أن يذكر للإخوة كلمات أبيهم الأخيرة في غرفة العناية المركزة، وجد صعوبة في مغالبة انفعاله وهو يتذكره يتمتم هامسًا: "الحمد لله أن لم يخب ظنى فيك أو في إخوتك، وهذا حسبي من الدنيا وأنا أفارقها غير نادم"... وخُيل إليه أنه رأى ملامح الجميع تنفرج قليلاً بعد أن خفف بكلماته من أحزانهم.

رأى بين المعزين أصدقاء الراحل الباقين يتوافدون واحدًا واحدًا، ومنهم الحاج حسن الذي كان تأثره عظيمًا، فقد قال لخالد بعد أن سكن روعه: "إن أشياء كثيرة جميلة ماتت بموت أبيك وانتهت إلى الأبد من هذه القرية".

كما بدا التأثر جليًا على الشيخ عمر والعمدة وإن لم ينبسا، وحضر العتريس وكذلك السائس العجوز، فاستأذنهم خالد ليقف مع إخوته على باب السرادق، وهناك وجد مأذون القرية الذي شد على يده معزيًا، كان معه زوج أخته الدكتور مختار أبو العزم الذي وقف إلى جانبه مع أبيه حلاق القرية القديم، وما أن أدار أبو مختار ظهره ومضى ليجلس في السرادق، حتى همس مختار في أذن خالد قائلا في لحظة صفاء نادرة وهو يشير لأبيه الذي أخذ مكانه وسط المعزين "هذا مثال جلى واضح لمن مات وهو حى يرزق، فلا هو ربى ولا نفع أحدا من الناس في حياته قط، أمّا عمي الحاج سالم الذي رباكم أحسن تربية، ولم يقصده إنسان في حاجة إلا قضاها، فهو مثال لمن يعيش وهو ميت".

وكاد خالد أن يبتسم برغم الموقف الحزين وهو يتذكر كلمات أخيه عن حصانه المتمرد الثائر رغمًا عنه.

الباشـــا

اعتبر القرويون آنذاك الباشا وافدًا جديدًا نسيبًا برغم أن الحياة في القرية تأثرت به وتأثر بها، وترك بصماته على الكثير من مظاهرها، فقد عمل عنده بعض أهلها وارتبطوا في حياتهم بوجوده ودوره هو وابنه، حضر الرجل إلى القرية بسبب خطبته الابنة الوحيدة لأحد كبار الإقطاعيين الذين ربطتهم صلة القرابة بوالدته، وكان أخوه - الذي يعمل مُهندسًا زراعيًا - قد تزوج قبل ذلك من ابنة خالة العروس، وقام بدور أساسي في إتمام زواجه، لعلاقته الطيبة بأهلها، فكان طبيعيًا أن يُعهد - بعد الزواج - إليه بالإشراف على أرض الزوجة بعد أن مات والدها، وقام الأخ بعمله على خير وجه، وظل الباشا مشغولاً بعمله كضابط في الجيش، فلم يتسن له أن يحضر آنذاك إلى القرية إلا كضيف عابر، يقضي يومًا أو يومين مع أخيه وزوجته، وقد عكر صفوه حرمانه من الإنجاب إذ عانت زوجته من عيب خُلقي في الرحم أدى إلى عدة إجهاضات متكررة، وعندما قُدر لحملها في النهاية أن يستمر، فإنها قاست من صعوبة الولادة، وعانت على إثرها من نزيف تسبب في وفاتها، وما لبث وليدها الصغير أن لحق بها بعد عدة أسابيع، وعاش الرجل وحيدًا إلى أن تقاعد مُبكرًا من عمله في القوات المسلحة بعد وفاة أخيه، حتى يرعى أرضه ويشرف عليها بنفسه، وتوثقت صلته بأرملة أخيه التي صارت في حاجة لرعايته، ورغم أنها كانت تكبره بعام أو إثنين فإنها قبلت أن تتزوجه بعد ممانعة لم تدم طويلاً، وأصبح يقضى شهورًا بكاملها في فيلته في القرية، ولا يتركها إلا عندما يسافر إلى المصيف، أو ليقضي جانبًا من الشتاء في العاصمة بين أصدقائه وأقاربه مع زوجته الجديدة.

وبدا أن الحياة قد استقرت وسارت على وتيرة هادئة، لولا ابن أخيه الذي سبب مشاكل جمةً له ولوالدته، إذ كان صعب المراس في كل مراحل حياته، وظل يرفض قبول عمه كبديل لوالده، ولعل نفوره من ارتباط أمه بالباشا تضاعف فأصبح واضحًا جليًا بعد أن وضعت الأم وليدها الثانى، إذ لاحظ الفتى اهتمامها وحبها الفائق لمنافسه الصغير، وتصاعدت المخاوف حتى أن الزوجين اتفقا على إرساله ليعيش في العاصمة الكبرى عند أحد أخواله، حيث أكمل دراسته الثانوية بعد تعثر متكرر، وشكا لهما الخال من سوء خلقه وتطاوله عليه، ورفض الفتى الالتحاق بالكلية الحربية، وتكرر فشله - من ناحية أخرى - في الجامعة، حتى ذهب عمه مضطرًا إلى قريبه الباشا الوزير في العاصمة، ورجاه أن يتوسط ليلحقه بعمل يتناسب مع مؤهله ولا يتنافى مع وضع الأسرة الاجتماعى، لم يتوان الرجل، فوجد له وظيفة بالخارجية، لكن سلوكه ظل مُعوجًا ممّا سبب لأمه وأقاربه كثيرًا من الإحراج والكدر، وحتى بعد أن بلغ سن الرشد وتسلم نصيبه من تركة أبيه، فقد بدد معظم ماله في اللهو والعبث، ثم تردد على أمه لطلب المزيد، وانتهت حياته نهاية مأساوية إذ وُجد ميتًا في سيارته التي انقلبت في الترعة على الطريق الذي يربط القرية بالمركز، غير بعيد من أرض عمه، وأحاطت بموته الشائعات حيث ربط الناس بينه وبين عبد الرحيم العتريس، وظنوا أن لعمّه يدًا في نهايته التي أراحته من عبء ثقيل.

وعندما كبر ابن الباشا الصغير، ألحقه بإحدى المدارس المشهورة بالثغر، كان اهتمام الرجل وزوجته بابنهما الوحيد فائقًا، ونصحتهما إحدى قريبات الأم أن يتركاه في القسم الداخلى ليتعود على السلوك الذي يناسب طبقته، فتعودت أمه أن تقضي العام الدراسى هناك حتى تلتقي به في أجازات نهاية الأسبوع، بينما يبقى الباشا للاهتمام بأمور الأرض وتحصيل إيرادها قبل أن يلحق بهما.

سارت حياة الباشا وزوجته عدة سنوات على هذا المنوال، بعد أن استراحا من مضايقات ابن أخيه الراحل، وإن بقيت ذكرى وفاته المفاجأة تُكدر أحيانًا صفو الأم، التي أحست بالذنب تجاهه، وظلت الطريقة المأساوية التي انتهت بها حياته مُترسبة في وجدانها، ولولا طبيعتها الهادئة، ووقوف زوجها إلى جانبها لما استطاعت تجاوز هذه الظروف.

رُشح الباشا لخوض انتخابات البرلمان من قبل حزب الأحرار الدستوريين، ونصحه قريبه الذي زكّاه بين قادة الحزب أن يُعمِّق من صلاته بأهل القرية والقرى المجاورة، فأصبحت بعض السهرات في منزله تضم أبرز شخصيات قريتنا مثل العمدة والحاج سالم، وفي اللقاءات عرف لهما خبرتهما ونظرتهما الثاقبة في أمور القرية، كما عرف للحاج حسن وللشيخ حسان درايتهما بشئون الأرض والفلاحة والتجارة وتربية المواشي، وتعرف كذلك على الشيخ علي مأذون القرية وآخيه، وكان الباشا يُبدى اهتمامًا واحترامًا لهؤلاء الرجال، وإن تناقل الناس في القرية في أواخر أيامه قصصًا تدل على أنه لم يُكنّ لأحد في القرية تقديرًا إلا تظاهرًا أملته عليه ظروف الانتخابات والمصالح فحسب.

من أهل القرية الذين كان لهم شأن مع الباشا زوجة خفيره، وهي امرأة حسنة المظهر، عدها الناس قبيل زواجها من جميلات القرية، وقد عملت أختها عند الحاج سالم في وقت من الأوقات، وتطوع ابنها البكري في الجيش، بينما عاشت ابنتاها معها، فساعدتها ابنتها الكبرى التي ورثت جمالها وطموحها في خدمة زوجة الباشا، وبقيت ابنتها الأخرى مع خالتها في القرية، وبعد وفاة زوجها سمح لها الباشا بالإقامة في غرفة مجاورة للفرن ومخزن المنزل (الكرار)، وحاول الغفير عطوة ـ عندما حل محل زوجها في العمل ـ أن يتقرب منها طمعًا في الزواج بها دون جدوى، ورغم أن المرأة كانت قد تعدت الأربعين،

إلا أنها لم تجد في مظهره الفظ، وفيما رُوي عن سجله الإجرامي ما يغريها بالقبول، ولاكت الألسنة في القرية سيرة ابنتها الكبرى، حتى أن بعض النسوة تهامسن مؤكدات أنها تحل محل زوجة الباشا في غيابها، وأكدت إحداهن أن المرأة نفسها كانت تشك في أمر ابنتها وأنها فزعت عندما شكت من أعراض شبيهة بالحمل المبكر، فذهبت مع أختها إلى الحاج سالم الذي أقنع الباشا بعرض المريضة على أحد الأطباء في المركز، حتى يطمئنها وتهدأ هواجس الأم، أو يخلصهما من ذلك الحمل، ورغم تخوف الباشا وتوجسه، إلا أنه أذعن في النهاية وأرسل الأم وابنتها إلى الطبيب الذي أكّد لهما أن أعراضها نشأت عن مرض بعيد عمّا ظنوه كل البعد، وفكّر الباشا في طرد الأم وابنتها، لكن الحاج أكد له أنه لو فعل فسوف تنتشر الفضيحة في القرية وأجوارها، فعدل عن رأيه على مضض، وانتقلت الابنة للإقامة مع خالتها في القرية، بينما ظلت تتوجه في الصباح مع أختها الصغرى لأداء عملها في منزل الباشا، وظلت على هذا الحال حتى زواجها من العتريس.

عمل أحد أقرباء الحاج سالم مُدرسًا للغة العربية في المدرسة التي ألحق بها الباشا ابنه، وحدث بعد قصة الخادم بسنوات أن حضر فجأة إلى القرية، وزار الحاج في منزله، وأسرَّ له أن ابن الباشا الذي كان في العام النهائي (البكالوريا)، قد ضُبط في وضع شائن مع أحد زملائه، وأن هناك تحقيقاً يوشك أن يتم في اليوم التالي، فأخذه الرجل على عجل إلى منزل الباشا حيث نقلا الأمر إليه، وبالطبع كاد الرجل أن يفقد صوابه، ولولا أن الإثنان قدَّرا حالة الأب المفجوع لما تحمل المدرس اتهاماته له بالكذب والاختلاق، وأشارا عليه بعد أن هدأت ثورته، بالسفر إلى الثغر لتدارك الأمر قبل أن يتحول إلى فضيحة مدوية، وأشفق الباشا أن يصل مثل هذا الخبر لزوجته، فسارع إلى العمل بمشورتهما، وانتهى الموضوع بإذعانه لكل ما طلبه ناظر

المدرسة، الذي أصر على أن يتعهد الأب بنقل ابنه فورًا من القسم الداخلي، وألا يسمح له بالاستمرار في المدرسة إلا ريثما يتم امتحان البكالوريا لمرة واحدة، على أن تُنقل أوراقه إلى مدرسة أخرى قبل مطلع العام الجديد إذا فشل في الامتحان.

لم ينس الباشا للحاج أنه شهده وعاينه في أحرج ما مر به في حياته، ولعله تخيل شيئًا من التشفي في نظراته عندما فضحته الأقدار في ولده الوحيد، وظنه يحسب ما حدث جزاءً لما اقترفه مع ابنة الخادم، والغريب أن هذا لم يمنعه من السعي بهمة واجتهاد لحفر الترعة الجديدة بالقرية وأجوارها، وتطهير المصارف، فلم يقبل بأقل من وعد صريح من مدير مكتب وزير الأشغال آنذاك أن شق الترعة والتطهيرات سوف تكون على رأس خطة الوزارة للعام الجديد، رغم أنه أيقن أنه ينقذ بذلك الحاج سالم، الذي تولد في داخله شئ من الكراهية له، من مأزق كاد أن يذهب بأملاكه، ولعله أقنع نفسه أنّ ذلك قد جعل يده هي العليا فوق أيدي الحاج وأهل القرية جميعًا، وأنه أسرَهم بفضله ومنته، وأعلمهم في ذات الوقت بمدى نفوذه وقوته، ممّا ينفعه في الانتخابات، ويضمن له كتمان الحاج لسره وفضيحته في ولده.

حمل العام التالي له بعض العزاء، فقد نجح ابنه في الحصول على البكالوريا، وقُتل منافسه القوي في الانتخابات على يد بعض المطاريد، ففُتح له طريق العودة إلى الجلوس تحت قبة البرلمان، وعندما حضر لفيف من أهل القرية للتهنئة تساءل وهو لايكاد يصدق، هل نجا من كل هذه الهموم فجأة؟ ..، لكن إدراكه لما سرى من إشاعات أحاطت بمصرع ابن أخيه ثم منافسه في الانتخابات، ومعرفته بأن الحاج سالم قد أحاط بسره مع ابنة الخادم، ثم ما تورط فيه ابنه من سلوك شاذ، جعلاه لا يحس بالفرحة وإن تظاهر بها أمام الناس سترًا للمظاهر..!.

عندما بشَّره قريبه بقبول ابنه في الكلية الحربية، لم يع مقدار ما حمله له هذا الخبر من الأمل والاستبشار، واختلى بولده فأخبره أنه إنما قُبل بوساطة الباشا الوزير نفسه، وتوعده إن هو أفسد محاولاته لإصلاح ما أفسده بإعوجاجه، وذكّره كيف أراق ماء وجهه أمام ناظر المدرسة حتى لايضيع في لحظة ما شقى وكدَّ طوال عمره ليحققه، واحْتدَّ عليه في نهاية حديثه حتى أنه هدده بالقتل وزلّ لسانه حين أقسم "أن يجعله يلحق بأخيه" إن هو سمع ما لا يرضيه عن سلوكه مستقبلاً، ولم يدرك الباشا أثر زلة لسانه في نفس ابنه إلا بعد سنوات طويلة.

لم تستقم العلاقة بين الأب وابنه بعد هذا أبدًا، فظل الرجل في الواقع غير قادر على أن يغتفر لابنه خطيئته، كما أن الشاب لم ينس ما قاله أبوه في فورة غضبه، وما هدده به من القتل، وكيف ذكر أخاه الأكبر كمثال، ممّا عدّه اعترافًا ضمنيًا بالضلوع في مقتله، وإن ظل برغمه يُخفي هذا الشعور، ويتجاهل ما بينهما من خلاف إكرامًا لأمه التي لم تعرف سرهما قط، وحاول الابن عن طريق عمدة قريتنا الذي ربطته به صداقة من نوع ما، أن يعرف شيئًا عن صحة ما أُشيع حول علاقة أخيه الأكبر بطرد العتريس من خدمتهم واحتمال ضلوع الأخير في قتله.

عاش الباشا حتى عاصر الثورة، وسار ابنه ـ بعلمه ـ في ركبها، ورغم أنه لم يفقد شيئًا من أملاكه إلا أنه لم يشعر بالأمان قط، فمال للعزلة وتملكه الحزن والهم، وزاد نفوره وتباعده عن ابنه بسبب ما سمعه عن ضلوعه في عمليات تعذيب غاية في القسوة، وأخذ ـ كلما سنحت الفرصة ـ ينصحه بعدم المغالاة في التعالي والكبر، وأن يتلطف في التعامل مع الناس، وعلم أنه رفض وساطة الحاج سالم لتأجيل ديون بعض مزارعيه، فحذَّره من إهانة من عدهم الفلاحون رؤساءهم، وكرّر له النصح ألا يعتمد على أمثال العتريس وعطوة "لأنهم ليسوا

حتى في أمانة الكلاب، وإنما هم ذئاب لا تتورع عن عضّ أيدي من يحسنون إليهم في النهاية"، سأله ابنه ذات يوم متخابثًا عن علاقة العتريس بمقتل أخيه الأكبر فتجاهل السؤال، وأخذ يذكره ألا ينسى أنه قد يحتاج لإبقاء علاقة حسنة مع أهل القرية خاصة في العهد الجديد الذي يتشدق بحقوق العامل والفلاح، وعاد الابن يتساءل: "أله علاقة بمقتل منافسك في الانتخابات؟ ..... فثار الرجل طالبًا منه ألا يسلك معه سلوكه مع من يحقق معهم ممن يُسمّونهم "أعداء الثورة"، وأضاف في إصرار: "قد تحتاج أنت نفسك إلى خدماته يومًا ما.!" وكان قوله صادقًا بأكثر مما ظن هو نفسه..!.

تعوَّد الباشا أن يحتفظ بأسراره، وأن يحسن كتمان شئونه التي لايجب أن يَطّلع عليها أحد، وظل دائمًا يرى "أن البلهاء فقط هم الذين يذكرون الحقيقة كاملة تاركين خباياهم تحت رحمة الآخرين". وكان أكثر ما أحبه في زوجته الثانية كتمانها لسره وأنها صدَّقت كل ما قاله، فلم تُشغل نفسها بتقصي الحقائق أو التفاصيل بأكثر مما تستحق، ورأى في ذلك دائمًا آية العقل ونهاية الحكمة، إذ مرت حياته معها كأصفى ما يمكن، وأراحته واستراحت هي نفسها من الوساوس والظنون، وعندما تُوفيت أحسّ أن منزله في القرية قد خلا من الأنيس، ولم يعد مكانه الذي يشتاق إليه، ويجد فيه السكن والراحة، وفضّل بعد رحيلها أن يقيم في فيلته بالعاصمة حيث تعود أن يلتقي برفاق الماضي فيجد نفسه في الساعات القليلة التي يقضونها معًا، وقامت الخادم العجوز وحارس المنزل على خدمته، والغريب أنه أصبح يأنس إلى هذه الخادم ويعاملها كصديق قديم في معظم الأحيان.

تساءل الكثيرون من الفلاحين عمّا إذا كان الباشا - بينه وبين نفسه - يميل حقًا إلى أهل القرية، ويحمل لهم في جوانحه شعورًا بالمودة الحقيقية، فقد دُهشوا عندما وجدوه يعتذر عن التوسط لابن الحاج

سالم الأكبر في دخول الكلية الحربية، وعندما فكّرت زوجة ابنه أن تعرض نفسها على طبيب اشتهر ببراعته، رفض أن يسمح لها بالذهاب إلى عيادته حالما عرف أنها تقصد الدكتور مختار أبو العزم ابن حلاق القرية، وأحبّ دائمًا الاستماع إلى ما سمّاه "فضائح أهل القرية"، مثل القصة التي اتُهم فيها الدكتور مختار باستغلال وظيفته، والتي كان يردد كلما جاء ذكرها: "لاتُعلّموا أولاد السفلة العلم"... كذلك ما تردد عن علاقة الحاج سالم بخادمته، وشجع الباشا رجاله مثل عطوة ومن هم على شاكلته على الخوض فيها، حتى لقد أُشيع في النهاية أن القصة كلها كانت محض افتراء من اختلاقهم، ولعله كان يقصد أن يشغل الناس في القرية عما أُشيع في الماضي عن علاقة الحاج سالم بزوجته السابقة قبل زواجها منه، وما أُشيع عن تحرش ابن أخيه الراحل بخادمتهم، كذلك فضيحة ابنه في مدرسته قبيل حصوله على البكالوريا، فضلاً عن فضائحه هو نفسه مع ابنة الخادم.

ظهر الباشا دائمًا بمظهر من يفهم الفلاحين ويُحسن التعامل معهم، ويقدِّر كل واحد على قدر مكانته، وكان يغلف شعوره الحقيقي تجاه الناس والأشياء بغلاف من الوجاهة والتواضع في آن واحد، كيلا يجعل أهل القرية ينفضون من حوله، وإن حَرِص على أن يُقيم حاجزًا بينه وبينهم في نفس الوقت لا يتعدونه، حتى لا يعاملونه كواحد منهم، ولكنه اعترف لذاته أنه لا يفهم ما يدفع فلاحًا مثل الحاج سالم إلى كتمان كل ما عرفه عنه، وظل لا يستطيع أن يعترف أنّ له من الأصالة والنبل ما يدفعه لهذا، ولعله في قرارة نفسه استراح باعتقاده أن للرجل من النقائص والأوزار ما تهون أمامه كل عيوب الباشا، وأنه مثله مثل الخادم التي لا تمانع في أن يكون بينه وبين ابنتها الكبرى ما يكون، على ألا يفتضح أمرها وأمره معها، وعلل كتمانه بأنه نوع من الدهاء والسياسة يجعله يوازن بين خوفه على الفتاة وأمها من الفضيحة، وهما من أهل قريته، وولائه الفطري لمن

كان مثل الباشا، وحتى عادل ابن الشيخ علي، فإنه رغم إعجابه بصوته، حرص على ألا يُظهر طربه له أمام الخادم العجوز، ودأب على أن يصفه بالرقة والنعومة اللتين لا تليقان إلا بالنساء، كما أخذ يردد أحط الإشاعات عن أسباب طلاقه من زوجته المطربة الناشئة.

لكنّ الرجل فما يبدو غيّر نظرته إلى كثير من الأمور، ومنها تقديره لأهل القرية في آخر أيامه، وقبيل وفاته أخذت الأمور تختلط في ذهنه أحيانًا، وطالما انطلق يتحدث فلا يلقى بالاً للمقام أو الحضور، كأنه يُخرج ما في نفسه من حمم طال كتمانها، حتى ضاق صدره بها، فأفصح عن شعوره تجاه ابنه بلا مواراة، وقابل الابن هذا التغير الذي أصاب أباه بشيء من الاستخفاف، بل وأخذ يستفزه أحيانًا مما ضاعف الهوة التي كانت دائمًا تفصلهما.

وأخذ في أيامه الأخيرة يتساءل عن جدوى الحياة، ومغزى الحساب بعد الموت، والعقاب والثواب في الدنيا، وامتنع عن شرب الخمر، وتعود أن يقرأ القرآن كل ليلة، فأصبح وكأنه شخص آخر.

وأسرَّت الخادم العجوز لابنتها الكبرى أنه دأب على أن يسألها الصفح كلما اختلى بها، وكان يتمتم إذا طيبت خاطره برد مناسب: "إذا كان لبشرٍ هذه القدرة على الغفران، فكيف إذًا بقدرته سبحانه وتعالى؟."، تعوّد دائمًا أن يسألها عن أحوال ابنتها مع العتريس، وطالما سألها عن صحة الحاج سالم في اهتمام حقيقي، والغريب أنه كان يسأل أحيانًا عن أخبار ابنه في قلق حقيقي كأنه يتوقع أمرًا سيئًا قد اقترب موعده!

قبل أن يغلق عينيه للمرة الأخيرة حضر ابنه وأحضر طبيبًا، لكنه رفض أن يسمح له بفحصه، وعبثًا حاول الابن إثناءه عن رأيه، لكنه همس لابنه الذي أعرض عنه وهو يودعه: "لم يتأخر الوقت للرجوع للحق، فلا تظن أن هناك مهلة طويلة أمامك، التوبة هي أملك الوحيد

في النجاة.. فلا تتردد"... وتحشرج صوته ناطقاً بالشهادة قبل أن تخمد حركته وتُصبح نظرة عينيه فجأة بلا معنى.. وتمتمت الخادم فيما يشبه الهمس:

(كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام).

تمت

٢٠٠١/١/١م

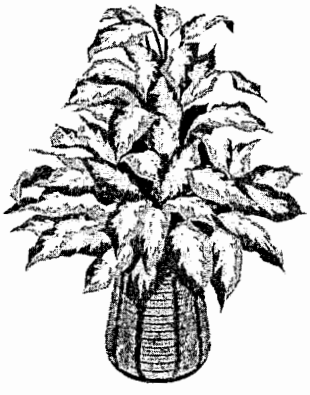

كتب للمؤلف

١) قراءة فى بروتوكولات حكماء صهيون (بحث)

٢) التحقيق (رواية)

٣) حكايات القرية (رواية)

٤) انقلاب (رواية)

٥) حديث الغربة (رواية)

٦) الحلم (مجموعة قصص قصيرة)

الفهرس

١- السر ٥
٢- زمار الحي ١١
٣- شوك بلا زهر ١٦
٤- العمدة ٢٣
٥- الإرث (مسلسل) ٣٢
١- الحلقة الأولى: القدر ٣٢
٢- الحلقة الثانية: العودة ٣٦
٣- الحلقة الثالثة: الحصار ٤٠
٤- الحلقة الرابعة: ما بعد الأزمة ٤٤
٦- الحرية ٤٧
٧- المهمة الأخيرة ٥٤
٨- الحاج ٦٤
٩- الباشا ٨٤

رقم الإيداع
٢٠٠٥/٢١٨٧٧
الترقيم الدولي
977 – 209 – 134 - 8